العبقرية والخليقة

أدَباءِ خالدون

تأليف

إميل لودفيج

ترجمة

زكي سوس

الكتاب: العبقرية والخليقة .. أدَباء خالدون

الكاتب: إميل لودفيج

ترجمة: زكي سوس

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

لودفيج ، إميل

العبقرية والخليقة..أدَباء خالدون / إميل لودفيج، ترجمة: زكي سوس،

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

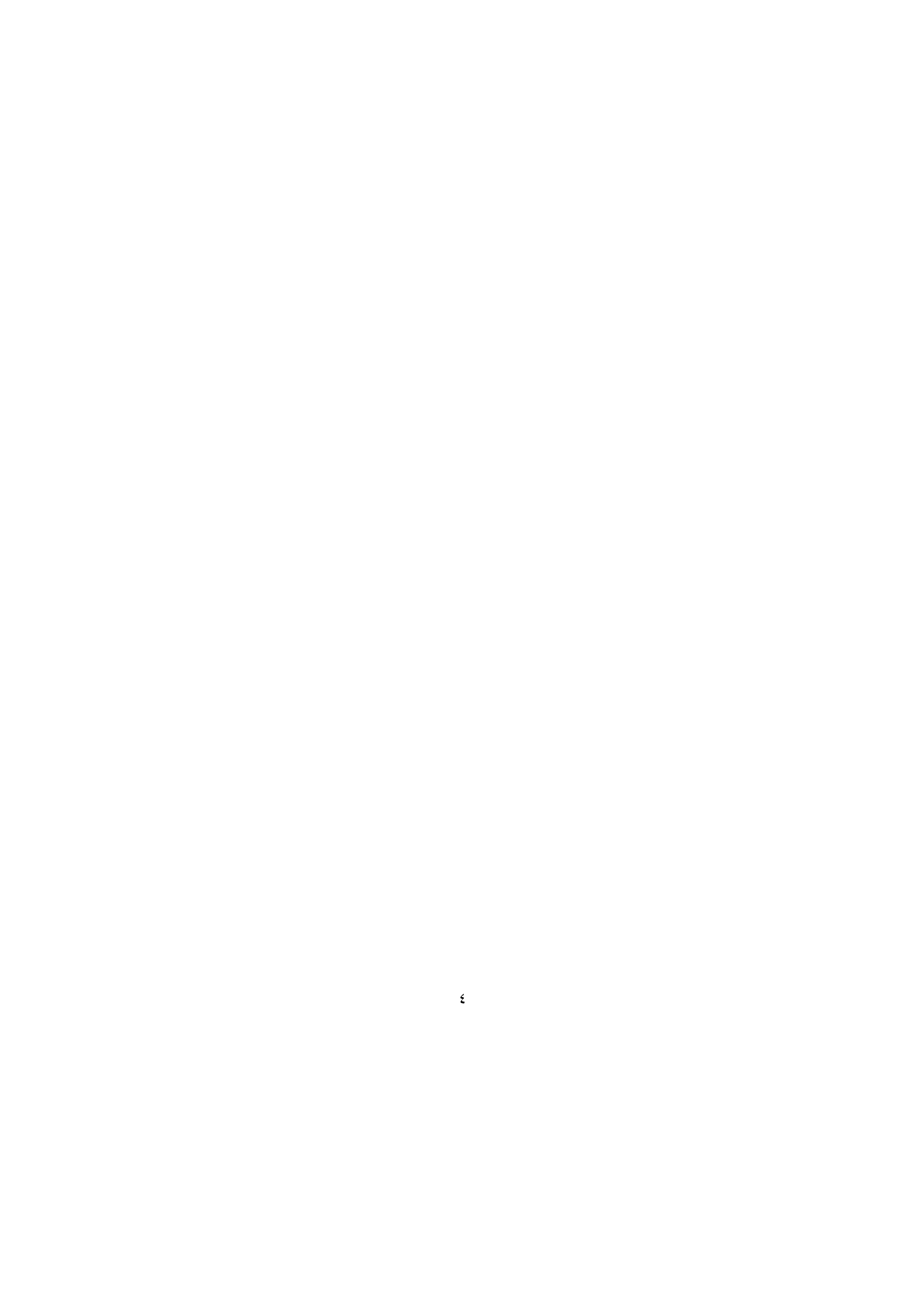
١٥٩ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٨ – ٠٩١ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٢٣١٢٥ / ٢٠٢٠

العبقرية والخليقة .. أدَباء خالدون





مقدمة

من أروع الكتب التي عالجت سير بعض الرجال الخالدين بطريقة مبتكرة، الكتاب الذي وضعه إميل لودفج الكاتب الألماني الأشهر بعنوان "العبقرية والخليقة"، ووجه الروعة في هذا الكتاب، أن لودفج قد ربط بين ما يتركب عليه شخص من خصائص خليقته وبين عبقريته، وهو يهدف من وراء هذا إلى غرض تربوي نبيل يجمع بين الواقعية والمثالية، هذا الغرض وتفتيق أذهان الناشئين على حقيقة مؤداها أن العبقرية أمر يستطيع كل شاب أن يحققه إذا هو روض نفسه على أن يعقد النية في تصميم وحزم على بلوغ مرماه.

وهذا الكتاب الذي يسعدنا أن نقدمه اليوم للقارئ العربي الكريم، هو الترجمة العربية للفصول التي عالج فيها لودج حياة ستة من الكتاب والشعراء المبرزين وهم: شكسبير، وفولتير، وجوته، وشلر، ودهمل، وبلزاك.

وقد وقع اختيارنا على هؤلاء الكتاب والشعراء الستة الذين كتب لودفج عنهم وخصصنا لهم هذا الكتاب بحكم ما يربط بينهم من صفة مشتركة هي العبقرية في الشعر والأدب.

وسننشر قريباً إن شاء الله كتابين آخرين يتضمنان بقية كتاب

"لودفج" وسيكون أولهما مخصصا لمشاهير رجال السياسة والحكم والثاني لعظيمين من رجال الفن.

وفي الختام نرجو أن يرجع هذا الكتاب بالنفع على المشتغلين بالتربية والتعليم، وعلى الشبيبة في وطننا العربي الناهض.

والله ولي التوفيق

المترجم

شكسبير Shakespeare

أيتها الشفقة الجامحة التي تظهر جيدا كل مساءة اقتليني بالكراهية ولكن يجب ألا نكون أعداء.

إن حياة شكسبير يخفيها ظلام، وعلى الرغم من كل جهود العلماء فهي لا تزال تكاد لا تزيد عن أسطورة.

والاثنا عشر تاريخًا وخطابًا ووثيقة التي بين أيدينا فعلا تقدم ظلا عوضًا عن صورة، لقد ضاعت سجلات حياته الخاصة، كما هي الحال مع ليوناردو ولو أنه توجد أدلة تقتفي عن تاريخ حياة في كتابات شكسبير، وكان الأفضل لقصة حياة الشاعر العاطفية أن تهمل.

ويجدها القارئ وهو يسرع سطحيًا عبر مؤلفاته، تقبع تحت ثلج متشقق يلتمع، وعندما ينفرج شق في الهوة كما في مقدمة "العاصفة" نرتد إلى الخلف فزعًا ونحول أعيننا، وتتجرد مؤلفاته، كما تدل جميع الظواهر، عن الذات، إلى أقصى حد، إن إنساناً أعلى[1] مثل بلزاك **Blazac** أنتجها، وهي على نقيض مباشر لما وضعه رمبراندت **Rembrandt** أو جوتة

[1]سوبر مان

Goethe أو بيرون Byron، وفي ست وثلاثين فاجعة (دراما) أعاد صنع عالم وعلى رقاعه الضيقة أتم دوره من الخلق، وفي النهاية يخال أنه نكص إلى الوراء وقد أخذ منه الإعياء وفرغ تماماً، آنية حياة عديدة النواحي استهلكت كأم أربي خصبها على الحد.

ما العجب في أن يذهب البعض إلى أنه كان ابنا لملكته بينما يرتأى غيرهم أنه لم يعش إطلاقا ولكنه كان من خلق الوهم، لأنه حتى صوره وهي قاسية وفي تحفظ تظهر أنها تعرض نوعا من الأسارير يضعنا أمام صعوبات جديدة، لدينا أدلة هنا على أنه تألم وربما وصلت به الحال أنه كافح ولكن قل أنه استمتع، إننا لا نظفر بلمحات في تلك المسالك السرية التي تؤدي إلى قلب رجل عظيم كما تتكشف المغارات السحرية في حفر الكبريت عند الشفق، وما طبيعة الأبناء الذين نسبوا إليه؟ هل عم فعلا، سواء أكان بالاختيار أو الإكراه، على ازدواج بعض تلك التجاريب التي تستطيع العبقرية أن تحسها مقدمًا؟ هل تشبه حياته الضيقة، بأية حال، كممثل ومالك وزوج وأب تلك التي كانت تحيياها الشخصيات القوية التي سمح لها أن تعمل وتحب وتخون وتقتل أو تموت باسمة؟

نكاد لا نعلم شيئاً محدداً عن حياة شكسبير الداخلية الهائلة وخيالنا حر في أن ينسج شبكة من التكهن عن الاثنتي عشرة من الحقائق واضحة المعالم التي لدينا عنه– كالحال في حياة نبي ميلان– الذي صور النسوة الباسمات.

وفجأة يسطع الضوء خلال الظلام، وفي نهاية مؤلفاته التي جمعت، توجد ملحمتان ومجموعة من القصائد الغنائية، ترجع إلى شبابه– كملحق وقد تهمل في طبقات كثيرة– وهذه تعتبر في العادة أقل شأنا إلى حد بعيد من الفاجعات[٢] وبما أنه يساء فهمها على وجه عام وكثيراً ما تهاجم فإن شعراء إنجلترا ينكرون غالبيتها وتجعلها اعتبارات خارجية موضع خصومة بين العلماء الذين لا تلقى حلولهم، حتى عندما تكون وافية ضوء على روح الشاعر ووردثورث **Wordsworth** وحده كان يشعر بمغزى هذا الكتاب الصغير عندما قال: "بهذا المفتاح، فتح شكسبير قلبه" نعم، هنا في هذه القوافي الأنيقة تقدم أمامنا كل عواطف الرجل وهنا تقبع مستخفيه أعظم خطابات الحب جنوناً وقد كتبت في آخر شبابه.

أما فقهاء اللغة فلهم نظرة في كل هذا، مغايرة، حتى ولو أن هذه الأشعار قد تستعر للدرجة التي تلفحنا، فإنه ينظر إليها "كتمرينات للخيال كان الشاعر يسلي بها نفيه ويسلي صحبه وخاصة بما أن مثل هذه الموضوعات كانت الابتداع الشائع في ذلك الوقت" ويقيم رجل آخر الأدلة في بضع مئات من الصفحات على أن سيدة وامرأة عاطل عن الألقاب وشابيين من الأشراف، يأتي عليهما بالوصف، ذاكرا الأسماء والمكانة عاشوا رواية وفي خلالها طلب ثم واحد منهم قصائد غنائية من واضع التمثيليات الشهير في مسرح جلوب **Globe Theatre** وقد

---

[٢] **Dramas**

سلمها مفردة أو في مجموعات بقدر ما سمحت به الفرصة، وثالث يزعجه السؤال عما إذا كانت ثورة ايرلأسكس **Earl of Essex** قد جاءت فيها وعما إذا كان الخصم في المنافسة هو مارلو **Marlowe** أو شابمان **Chapman** ورابع لا يستطيع أن يفهم لماذا واصل الشاعر الكتابة حتى الرقم مائة وأربعة وخمسين عوضا عن أن يقنع بعدد عظيم من الضحايا، ولكن كل أولئك الذين يعتقدون على وجه عام أن ثمة تجربة كانت أساسا للقصائد، يتحاشون في لباقة السؤال: من هو الغلام ومن هي المرأة اللذين تشير إليهما.

وعلى هذا فإن الإهداء الشهير الذي يوجد في مستهل الطبعة الأولى يريك عوضا عن أن يبين، وهذه السطور عديمة المغزى إلى شأو قصي، من ناشر إلى شخص يدعى مستر و . هـ**Mr. W. H** قد أصبحت لغزاً لا ينتج عن حله أي نفع، أو هل نعلم شيئا عندما نقول إن هذا الشاب كان ايرل بمبروك **Earl of Pembroke** لا إيرلسوثمبتون **Earl of Southampton**؟ أو أن هذا الإهداء لم يكن للمنشئ ولكن لجامع القصائد الغنائية ثم تاجر أو غيره، وربما كان ابن عم الشاعر؟ ولقد أوضح إنجليزي في صراحة أن السيدة السمراء كانت الكنيسة الكاثوليكية وأوضح غيره أن الغلام لم يكن غلاماً ولكن الملكة إليزابيث **Queen Elizabeth** نفسها يكتب لها شاعرها كما يكتب لرجل ليؤكد قوتها وجلالها، وقد أعلن مؤلف ألماني أنها صرخات شخص قسم له

الموت إلى شخص كتب له الخلود، ولكن رفيقه بسط الأمر كله على هذا المنوال: إن القصائد الغنائية هي مجرد خلق خيال شاعري لأنها لو كانت نتيجة مشاعر أحسها من واقع الحياة، إذن لكان على أعظم شاعر أن يمثل أمامنا ضعيفاً مزعزعاً ويستحق النذر من التوقير.

وهذه هي النتيجة النهائية التي تفرق الأجيال، ويقدم لنا نحن أهل العصر الحاضر هذا الكتاب الملتهب، وهذه المجموعة من الصفحات المستعرة من يوميات، شهادة تقابل بأعظم ترحاب، عن اندفاع عاطفة عنيفة، مرة، في روح الإنسان الأعلى[3] هذه وعن تحطمها على هاتيك الشواطئ الصخرية مرة، ولكن يجب على المرء ألا تقصيه الصيغ الرسمية والتقاليد التي تلازم المؤلف: بل يجب أن يدور تفكيره في النغمات الخالدة التي تصدح تحت الشعور المستعارة والتجاعيد التي تخفي إنسانية موزار **Mozart** العميقة، إن منزها منسقاً، غولي في تزيينه لا يعني بالنسبة لنا أن كل شيء تحت التربة على هذا المستوى من النظام إذ في قدرتنا أن نتصور الجذور غير المنظورة تكافح في تعطش وشراهة في رقعتها من الأرض كجذور غابة لم تستأنس.

لأنه تحت الشكل الراتب[4] في وضوح، الذي ينتظم هذه القصائد ذوات الأربعة عشر سطراً، تحت السطح الأملس توجد تأوهات، وانفعالات وتوجع ورعدة ومرح رجل يحب.

---

[3] **Superman** إنسان أعلى

[4] دائم، ثابت

وإذا كان الأسلوب الأدبي في عصره قد أدى به إلى قبول ذلك النمط من القصيدة الغنائية المبسطة ذات الرنين والتي تنزع إلى عدم المرونة فإن هذا مجرد تعبير عن حرفته وزمنه: إن خطابات نابليون الغرامية كثيرا ما تقرأ وكأنها رسائل حربية، ومصير هذا الشاعر فيه نفس المسحة من الكآبة التهكمية التي تنم عنها آخر رواياته من نوع المسلاة (الكوميديات).

إنه يحب ويخدع، إن بروميثيوس[٥] **Prometheus** الحديث هذا الذي شكل الناس من شمع التاريخ أو الأسطورة ونفخ فيهم سعير أنفاسه إلى أن سرت الحياة فيهم يبرح به الشوق، ويخدم، ويخطب الود ويثور به الغضب ويلتمس على الولاء عطف غلام وامرأة ناضج، وإننا لا نعلم شيئاً عنهما ولا شيء ذا خطر يدعو إلى معرفته إلا أنه كان مليحا أشقر منحلا ونبيلا ولكنها كانت سمراء جافية الطبع تكلف بالمراح وغجرية إلى حد، ويصبح وقد وله ولهاً تاماً بهما جميعا: ويخوناه أولا كل منهما على انفراد ثم وهما مجتمعان، وكلاهما يتحول عنه في مقت متأصل دافع، وقد يتحول إليه دون أن يشتبه أبدا في موهبته العقلية، ولما أطار صوابه الحب والغيرة فقد أصبح نهباً للعواطف الجامحة يتملق أو يهدد، يتردد أو تستبد به الرغبة، ومع هذا فعندما يختتان[٦] ويهجر هجراناً تاماً فإنه يرقى في تعطش الشباب إلى درجة من الجمال الباهر والتهذيب

---

[٥] بروميثيوس**Prometheus** في الأسطورة اليونانية سرق ناراً من السماء فربطه زوس **Zeus** إلى صخرة ليعذبه نسر جزاء فعلته.

[٦] يقال خانه واختانه.

العظيم حتى أنه يهدد بأن يفني نفسه في الحب الممتزج بالكراهية وينفجر جنونا.

والشاعر الذي كان دائما يهمل طبع مؤلفاته ما كان يمكنه بكل تأكيد التوافر على جمع حتى أقل هذه القصائد ثوراناً فضلا عن طبعها.

وعلاوة على هذا، فإن كل الدلائل الخارجية تشير إلى النقيض: مثل النص الذي اختلط نظامه اختلاطا تاماً، والإهداء من الناشر، وعصره الذي كان لا يعني بالأدب، وعليه طابع التذكير– وقد ظهر الكتاب قبل موته بسبع سنوات– وفوق هذا كله الرغبة في عدم عرض واقعة حبه، الشريكين اللذين كانا معروفين دون ريب في دوائر معينة في لندن، بما فيه تعبير المعترف، ولهذا فإننا أميل إلى الاعتقاد أنه لإيقاع الأذى بشكسبير واللورد (إيرل) الشاب نشر خصم هذه القصائد وكانت نسخ منها بين أيدي الصحب أعواما، وقد انتهت سنوات الجنون التي جسر فيها الشاعر على تخويف الطبقة الوسطى بالأغاني الجامحة التي تشبه أغاني اريسطو[٧]**Ariosto** عن فينوس[٨]**Venus**وادونس[٩]**Adonis** وهي التي سلمت حقا من رقابة رئيس أساقفة كانتر بري ولو أنها ذكرت في قصيدة معاصرة ضمن أدوات غانيته، المنزلية كمثير للغواية.

---

[٧]شاعر النهضة الإيطالية اللامع الخصيب ١٤٧٤ – ١٥٣٣م.

[٨]إلهة الجمال التي ولدت من زبد البحر وتصور في الغالب خارجة من بين الأمواج.

[٩]شاب يوناني على جمال وافر أحبته فينوس (أفر وديت اليونانية)

ومعاصروه، ولو أنهم تعودوا على تتابع القصائد الغنائية وعلى الأخص على التتابع الذي يتحدث عن الرجال، فإنهم أعجبوا بغزارة مجموعته، ثم غشتها الظلال ومعها روايات الفاجعة (الدراما) ولكن عندما عاد الميل إلى روايات الفاجعة فقد ظلت القصائد الغنائية مهملة الشأن.

منذ الذي يقرأها اليوم؟ من ذا الذي يستطيع أن يجد طريقة في هذا المنزه المنسق الذي تظهر فيه جميع المسالك متشابهة وحيث يأخذ الكلال من أي شخص يحاول السير هنا دون مرشد، لشكلها ذي النمط الواحد؟.

ولما كان ترتيب القصائد الغنائية لم يضعه الشاعر نفسه فيحق للأجيال التالية دون الاعتداء على حقوق أية قصيدة بعينها أن تحاول إعادة ترتيبها دون وجل من أنهم تمادوا في الخطأ أكثر من الناشر الأصلي، وقد نهض بهذا العمل منذ أمد بعيد علماء إنجليز وفرنسيون وألمان، وحتى عند إعادة طبعها بعد ظهورها لأول مرة بثلاثين سنة، وضع لكل قصيدة غنائية عنوان.

وليست للقصائد الغنائية، بأية حال، قيمة متماثلة، إنها أحيانا تعبر عن حالة نفسية، وأحيانا أخرى تكاد لا تكون أكثر من خدع– ويجب حذف ثلث القصائد حتى تعبر عن عنف هذه القصة العاطفية التام، ثم يسمع المرء رجع أصدائها، والمجموعة الأولى وهي أكثرها تأدبا هي أيضا أقلها تشويقا، وربما أشارت بوضعها أم عطوف ألحت بها الرغبة في أن يسلك ابنها الذي يأخذ بأسباب المسرات سلوكا حسناً في بكور

زواجه، ثم توجد أخرى تشبه المنولوجات وعمل على إيجاد رابطة اصطناعية بالبقية بتحوير مفاجئ في ختامها.

ولكن تلك التي يحسها إحساسا عميقا، تصل إلى درجة الكمال كشعر عرضي صادق، إن الشاعر يصيح ضد معائب زمنه وهو يجري مرتطما بحائط الموت الذي يحيط، دون هوادة، بجنة الحياة وفي لحظة ينعم بشمس الصيت الخالد وفي اللحظة التالية يحقر كل جهد، إنه يشكو من أصله الشعبي ثم يشير إلى وظيفته بفخر المهنة ويعذبه الطموح والغيرة وألم الحب الذي لا جزاء فيه وتأخير العدالة، كالعذاب الذي لاقاه أميره الدنماركي[١٠]– ويشعر القارئ أن شكسبير الرجل هو هنا، ونصغى إلى ضربات قلبه وتأخذ بأسرنا هذه الفاجعة الشكسبيرية الصادقة بينما يركع الشاعر أمام الجمال، بينما العبقرية تحط قدرها أمام شاب فاسد يبهر البصر، بينما مباهج امرأة مهرت الحب تتحطم على شاطئه، وبينما يجري، آخر الأمر، الشاعر الذي تقدمت به السنون وراء خائنين له ضاحكين، وراء هذين الغريرين– لاهثاً، محتقراً، محباً وكارهاً، الأبله بأكمله والشاعر بأكمله.

ولم يكن لزواجه أو شراء العقار أو حتى حرق المسرح التأثير العميق فيه، كما كان لهذه التجربة، وبينما انعكس الكون في القصر في الداخل وأعيد عرضه في صور على الشاشة في الخارج، فإن هذه المغامرة من الخارج أخذته من عنقه وهزته وأنزلت به الألم الموجع.

---

[١٠] هاملت Hamlet

فولتير Voltaire

في ثماني عشرة مصورة

إني ناعم الملمس كثعبان الماء ونشط كعظاية[١١] ولا أعرف الإعياء كسنجاب[١٢].

في غرفة ذات أثاث يتنافر مع الذوق، في باريس، تجلس بجوار النافذة سيدة عجوز أنيقة تحدج النظر وتبتسم في الشمس، إنه وقت الظهيرة، الوقت الذي يقوم فيه الزيارة اليومية، الكاهن الذي ينظم الشعر ويفهم النساء ويكتب في الموسيقى، وعندما يدخل يتقدم وفي يده غلام، له ملامح يقظة، نفس الغلام الذي أخبرها، في اليوم السابق، عن أشعاره وجاء في سرد القصة أنه منذ عهد قريب، ذهب إلى المدرسة أحد العجزة من الجند **Invalid** الذي كان قد خدم أثناء ألمع أعوام الملك الشمس[١٣] **Roi Soleil** والذي أصبح يلازمه المرض، ليطلب المدرس أن يكتب له قصيدة تذكارية للدوق **Dauphin**، ولما كان المدرس غائباً فقد جلس الغلام، في عجلة، وكتب له قصيدة من عشرين بيتاً، وقد تداولتها الأيدي ثم بعد ذلك عرضت على السيدة العجوز.

---

[١١] العظاءة والعظاية وعظاءه – هي السحلية عند العامة.

[١٢] فارسي معرب.

[١٣] لويس الرابع عشر.

والآن وإذا هو يقف في مواجهتها، تقل حدة مظهره الذي ينم عن عداء، إنه يتردد ويقبل في احترام اليد المتغضنة التي استقرت عليها (كما يحتمل أنه يعلم ذلك) شفتا موليير **Moliere**. منذ نصف قرن عندما كان لا يزال يتأرج من تلك اليد عبق شبيهة فينوس **Venus**.

والآن تبتسم إلى الشاب وبعد ذلك بسنة، عندما فتحت وصيتها، وجد أنها تركت له إرثا يبلغ الألفين من الفرنكات ليشتري بها كتبا، لقد كانا نينون دي لنكاز **Ninon de Lenclos**، ولها من العمر أربع وثمانون سنة وفولتير **Voltaire** البالغ من العمر عشرة سنوات.

ويجلس الأديب الذي اكتمل له واحد وعشرون حولا في مقهى وهو يرغي ويزيد ضد الملك والبلاط وهو يخص بالسخرية الأورليان **Orleans** المنحلين، ويستدرجه سامعه، وهو ضابط، قابلة عرضاً، أكثر فأكثر دون أن يشعر، ويبدأ الشاعر السياسي الشاب في الإغراق وفي غلواء الحماس يزهو بأنه وضع ثم قصيدة تهكم شخصي، بالفرنسية واللاتينية كانت تذاع دون توقيع في ذلك الوقت، وكانت في الحقيقة من وضع شخص غيره، وسرعان ما بلغ الجاسوس هذا كله ووصل إلى الحاكم علم به وبعد أيام قلائل يجلس فولتير في الباستيل **Bastille** وقد أحضر من منزل أبويه مجلدين لهومر**Homer** ومنديلين من الدانتلا وقناعا وبنيقتين وقلنسوة نوم وقنينة من عطر زهر القرنفل.

ويبقى في البرج أحد عشر شهراً، ولما كان لا يسمح له بورق وداد

فإنه يكتب أشعاره بقطعة من الرصاص بين سطور الكتاب.

وتزدحم الكوميدي فرنسيز **ComedieFrancaise** وينقسم البلاط والمجتمع إلى حزبين يغالب كل منهما الآخر في الجواهر والأحجار وفي الترقب والحقد، وتوشك رواية أوديب **Adipus** لفولتير الشاب أن تمثل ويحدو الأمل دوقة مين **Duchess of Maine** وشيعتها أن يحس الرافد[١٤] وابنته اللذان، كما يعلم كل فرد، يعيشان كرجل وزوجته، وقع تلميحات خصمهما الشاعر، كالشخصين الملكيين في هاملت **Hamlet** وينهارا، في فضيحة، وربما سيوجه إليهما الصغير، ولكن أورليان **Orleans** أكثر نعومة من ذلك، والزمن تقل فيه المأساة عما كانت عليه حال داينمارك في الأسطورة، إنه يبتسم في طمأنينة إلى جوار ابنته، وتجلس الدوقة في كبرياء تحت ظلتها يحيط بها وصيفاتها الثلاثون، وهي لا تحاول أن تخفي عن أبيها دلائل حملها وكلما تقدم سير المأساة، كانا يعطيان إشارة بنفسيهما، وفولتير، خلف المناظر، في نشوة لأنه يشعر أنه أدرك نصراً، وأخيراً يتخذ هيئة خادم ويساعد في حمل أردان الكاهن الأعظم ليتسنى له أن يشاهد الجمهور من المسرح.

وأخيراً عندما يتعالى الهتاف (لأنه لا يزال يوجد بين الجمع مزيد من أزواج على غرار أوديب) ويظهر المؤلف نفسه في مقصورة مارشال، يردد الناس من أسفل الهتاف لزوجة المرشال الجميلة: قبليه! ... وتلبي النداء بين الابتهاج العام.

---

[١٤] **Regent**

وفي مقصورة أدرين ليكوفر ير **Adrienne Lecouvreur** العظيم في إحدى أمسيات الشتاء يقابل فولتير نبيلا شاباً أخذ منه الغيظ لأن يجد السيدة في صحبة هذا الأديب من الطبقة الوسطى، ويسأل في تهكم، ما هو اسمك الحقيقي بالضبط، بما أن فولتير كان قد أتخذ هذا الاسم وحسب "السيد فولتير **monsieur de Voltaire** أو مجرد السيد أرويه **Arouet**.

ويرد الشاعر "إن اسمي يبدأ بي، واسمك ينتهي بك! ..."

ويرفع الشيفاليه[١٥] **Chevalier** عصاه ويهم فولتير بامتشاق سيفه وتدعي الممثلة الذهاب في غيبوبة.

ولكن بعد ذلك ببضعة أيام، عندما كان خارجا من قصر دوق، حيث كان ضيفا مقربا أعواما عديدة، هاجمته عصبة من الأوغاد بينما كان الشفاليه على بعد خطوات قليلة ينظر ويضحك، وبمجرد أن استطاع الضحية اللياذ بالفرار، رجع إلى غرفة مائدة الدوق يتطلب منه العون بما أن مثل هذا التعدي كان يمس الدوق كما يمس ضيفه.

ولكن الدوق أبى مساعدته ولو أن ما وصل إليه فولتير من مواهب عقلية جعله محبوباً من عليه النبلاء وتحت حماية المرأة التي كانت حقاً حاكمة فرنسا ولو أنه كان يشعر أن الرأي استقر عليه ليضطلع بأعباء

---

[١٥] لقب أقل رتبة من بارون

حياة سياسية عظيمة كان أهلا لها من شتى النواحي، فإنه رأى أنه لم يصل حتى إلى خدش السطح في تحيز الطبقات، والآن أصبح يمارس المصارعة بالسيف من الصباح حتى الليل وكرر تحديه للنبيل وأهانه علناً ولكن أقار بالرجل وكان كثير منهم كرادلة وأمراء، حاولوا منع المبارزة وفضلوا إلقاء القبض أولا على رجل الطبقة الوسطى (البورجوازي) ثم نفيه.

وهكذا، أتى إلى إنجلترا.

في أحد الشوارع الجانبية الضيقة في باريس يقوم منزل قديم يملكه تاجر حنطة، وقد عاد فولتير في أخريات سنيه الثلاثين وبعد فترة من الاستخفاء لا يقوم الآن بأية محاولة أخرى ليواري وجوده، ويسعى من مكان إلى مكان وأخيراً يسكن مع تاجر الحنطة هذا ويجعله أيضا يقوم بمهمة سمسار له، في المضاربة بالحبوب، وفي مسكنه هنا يستقبل فولتير كل شخص، واليوم تزوره جوقة سان بيير **Duchess of Saint Pierre** وصديقتها، ولقد أحضرتا معهما امرأة وهي لو أنها غير جميلة على وجه التحقيق إلا أنها ذات مظهر أخاذ جداً، إن لها أنفاً عظيما وفماً جميلا وذقنها ثابتة ولها عينان خضراوان صافيتان وإطار من شعرها الأسود يكتنف جبهتها العالية الوضاءة، وتدخل دون ما تكلف– ومع هذا فهي قد أصابت حظاً من التعليم العالي وكان لها عالم من الاختبار، وأعجل الشاعر تعرف ذلك لأنه على الرغم من علمها وما هي عليه من قدرة عقلية فإن المركيزة دي شاتيليه **Marquise du Chatelet**

تستبد بها عاطفة عميقة وبينما يجلسان إلى طعام هيء لهما ارتجالا يقدم هذه المقطوعة الصغيرة.

أيتها النساء! ... لو أني أسمع

ماريان **Marianne** طاهيتي تهتف

لو أن دوقة سان بيير **Saint- Pierre**

صاحبة القصر الصغير والفور كالكيه **Forcalquier**

تقدم لتناول العشاء في كهفي

ومنذ ذلك المساء ظلت "إملي **Emilie** الإلهية" القريبة إلى قلبه طوال سبع عشرة سنة أولا كمحظية ثم بعد ذلك كصديقته وحاميته.

ويقيم سنوات بأكملها في قصر الأسرة على الحد المتاخم للورين حتى يكون في استطاعته، أثناء الاضطهاد الذي كان يقع عليه في فترات، أن يغادر البلاد بعد لحظة من إعلانه.

وفي غرفة جرداء في قلعة في كليف **Cleves** يرقد وقد أصابته حمى، رجل واهن يبلغ من العمر ثماني وعشرين سنة وهو مشتمل بعباءة ركوب بروسية، إنه ينتظر وصول معبوده كما كان ينتظر طوال الأربع سنوات الماضية، وكان قد عكف على كتابة خطابات إليه، نظما ونثراً تحوي أعظم مديح عاطفي ويعقد الموازنة بينه وبين أبولو **Apollo** وسقراط **Socrates** وكذلك قيقرون **Cicero** وبلني **Pliny** وأغربا

Agrippa ولكن الفرنسي لم يحضر، إنه كان ينئه[١٦] في أعظم إطراء سافر إلى أن يصبح اللقب الذي كان هذا الرجل ليرثه، حقيقة واقعة، لقد استدعى أسماء طراغان **Trajan** وفرغل **Virgil** وطيطس **Titus** وأغسطس **Augustus** ليعلمه القدر العالي الذي يراه فيه، والآن عندما يتلاقيان في النهاية، يصاب الألماني بحمى متقطعة.

ولكن عواطف الشباب، عند مرآي الأستاذ تصبح من العنف بحيث تنخفض الحمى ويستمع هذا الرجلان، طوال ثلاثة أيام، على الرغم من وجوه الاختلاف الأساسية بينهما، بأول ملاقاة عقلية.

إنهما فردريك **Frederick** وفولتير **Voltaire**.

وعلى مائدة رشيلو **Richelieu** الذي كانت تجمعه والشاعر أسباب صداقة ويشبهه في العقل وفي الكلبية، وفي الفروسية والدهاء، إنهم يناقشون ناقدين تمجيداً جديداً لفتاة أورليان **Maid of Orleans**.

ويذهب الزعم إلى أن فولتير، وكان حاضراً، كان يمكنه أن يعالج الموضوع في قدرة أعظم بكثير، ويجيب مبتسما، بأن قصة فتاة مقصف تهجر فندقها لتموت حرقاً هي مجرد موضوع التهكم!. ويتغلبون عليه ويقوم عنهم ويضع الأربعة أقسام الأولى من القصيدة ويقرأها بعد ذلك بقليل على نفس الجماعة، ويهتف كل فرد استحسانا ويحضه على المضي.

---

[١٦]يقال أناه أي أبعده

هذه هي بداية الفتاة **La Pucelle** وهي من أجسر ما وضع من مؤلفات، ينظر إليها كرنيلة خافية، كطلسم، ولأعوام يجعلها المستودع السري لتفكيره الحر ولكلبيته وهو نفسه يخفي نسخ القصيدة حتى لا يظن أنه الواضع لها ومع هذا، فإنها ذاعت بين مجتمع باريس وأصبحت تربط دون خطأ، باسم فولتير.

فرساي **Versailles**، لقد بلغ فولتير الخمسين، إنه في الحال يوجه التفاته إلى تلك المذاهب السائدة في زمنه التي أصبح فيها وحده من الخالدين اليوم، على مسرح البلاط الصغير، في القصر في حضرة الملك والملكة وولي العهد والأطفال، والنبلاء من طبقة الفرسان والأمراء والكرادلة سيؤدي عرض تمثيلية صغيرة عصرية والرقص الجماعي والمقطوعة، يقوم به موسيقيون وراقصون ومصورون ولم يقدم الساخر فولتير إلا الكلمات، وقد حصل على التكليف بالقيام بهذا العمل للبلاط، عن طريق نفوذ امرأة من أصل بورجوازي (الطبقة الوسطى) كانت مؤلفاته ودان لها الآن كل سلطان: بومبا دور **Pompadour** وفولتير كشاعر قومي في مقاعد القصر الملكي الخلفية[١٧].

"فرساي، أول أبريل سنة **١٧٤٣**، نظراً إلى أن .. لم يجد جلالته أي شخص أكثر جدارة ليتميز برتبة شرف، من السيد أروية دي فولتير **SieurArouet de Voltaire** الذي بتفوق مواهبه وبكفاحه المتواصل

Srall[١٧]– المعقد الخلفي في المسرح

ظفر بأسرع تقدم في جميع تلك العلوم التي عكف على درسها."

ويضع، وهو يبتسم إلى نفسه، في كيس نقوده راتبه السنوي الجديد البالغ ألفين من الجنيهات ويدس الأبيات:

إن ما وضعته عن هنري الرابع وزير **Zeire**[١٨]

وألزير الأمريكية[١٩]**AmericaineAlzire**

لم ترجع على أبداً بنظرة واحدة من الملك

كان لي ألف عدو والنذر اليسير من المجد.

ويغدق على التكريم والأرزاق في النهاية.

لمسرحية هزلية تقام في سوق.

مائدة قمار الملكة في فوتنبلو وتخسر صديقة فولتير ماركيزة دي شاتيليت**Marquise du Chatelet** أربعمائة جنيهاً فرنسياً من الذهب، ويساعدها على الخروج من مأزقها بالمائتين التي كانت لا تزال لديه وتخسرها، ويحضر خادم مائتين أخرى من أقرب مقرض نقود بنسبة للأرباح عالية ويتمكن صديق من جمع ١٨٠ أخرى، وتخسر السيدة، وقد حذرها فولتير عبثاً المبلغ كله: إن ٨٤٠٠٠ من الفرنكات صارت

---

[١٨]مأساة وضعها فولتير وهي منقولة إلى حد ما عن عطيل

[١٩]مأساة له أيضاً وازن فيها بين الرجل الفطري النبيل وما تجمل به من فضيلة والرجل المتمدين المسيحي والبطلة الزيزا أسيرة بروفية **Pruviane**

إلى ضياع، وفولتير وهو متفرج على الرغم منه، يجسر على أن يقول لها بالإنجليزية إنها لم تلحظ أنها كانت تلعب مع غشاشين.

وهذا عين الحق، ولكن هذه مائدة المملكة، وفي نفس الليلة أجبرا كلاهما على الفرار حتى يتجنبا العواقب الجسام.

وتأويه دوقة في قلعة، ليست على بعد عظيم ولكن القلق يساورها حتى يصبح لزاماً عليه، طوال شهور ثلاثة، أن يلزم غرفة قاصية وقد أغلق الباب، وأوصدت المنافذ، وفي كل ليلة في الساعة الثانية يقاد إلى غرفة نوم الدوقة العجوز حيث يجد عشاء في انتظاره ويقرأ على السيدة ما يكون قد كتبه في يومه، وبهذه الوسيلة يخرج خمس روايات قصار.

قلعة كومرسي **Commerci** في منزه قديم، إنهما ضيفان على ملك بولندا الذي جعل مقر بلاطة هنا، مع صديقة والمركيزة التي بدأت الآن سنيها الأربعين، كفت عن أن تكون محظية فولتير منذ عشرة أعوام خلت، لأن فولتير كانت تتقدم به السنون في سرعة، في ما للنساء شأن به، ولو أنها ظلت دائما صديقته القريبة إلى قلبه فمنذ عهد قريب هوت رأساً على عقب في الحب، مغامرة قدر لها أن تكون الأخيرة، والرجل ضحل، لا يؤبه له، يصغرها بعشرة سنوات ثم مسيو

بلده في مقاطعة ميز **Meuse** على نهر ميز **Meuse** في فرنسا وفيها قلعة.

دي سان لامبر**Monsieur de St. Lambert** وكان أيضاً عشيق محظية الملك.

وهذا المساء يغادر فولتير وقد اكتمل له من العمر أربع وخمسون حولا، غرفة قبيل العشاء، على التحديد ويلج، دون أن يعلن قدومه مسكن صديقته، ويجدها في موقف غرامي عنيف مع الشاب، ومشهد واتهامات، ومرارة وقرار بأن يرحل هذه الليلة بعينها ويضع خادمه، لترجيح جانب الوصول إلى صلح، خطة تكفل عدم وجود مركبة.

ولما جن الليل يسمع في النهاية حديثا يدور بين الأثنين اللذين مضى عليهما الآن خمس عشرة سنة وهما صديقان حميمان لأن المركيزة عثرت على صديقها بعد بحث، وتحاول أن تسترضيه.

فولتير: هل تريدين أن تحمليني على تصديقك بعد ما رأيته بعيني؟ لقد ضحيت بالصحة والنعيم وبكل نفع لأجلك وأنت تخدعينني! ..

المركيزة: "إني أحبك كما كنت أحبك دائماً، ومع هذا فقد كنت تشكو، زمناً طويلا من أن قوتك تسير إلى وهن، إن هذا لما يبعث في الأسى ومع هذا يتحتم علي أن أراعي صحتك، وبما أنك تقول بنفسك إنك لا تستطيع أن تقوم بشيء في سبيل راحتي دون الإضرار براحتك فكيف تغضب مني عندما يأخذ واحد من أصدقائك على عاتقه بعض مسئولياتك؟"

فولتير: "إنك على حق، ولكن من الآن خذي حذرك من أنه لا يحدث تحت بصري.!"

وفي مساء اليوم التالي، يظهر منافسه أمامه ويرجو منه الصفح عن نزقه.

فولتير: "يا بني إني، وحدي، المخطئ، إنك في السن السعيد الذي يستطيع فيه المرء أن يحب النساء ويكون مقبولا لديهم، انتهز هذه الفترة القصيرة، إني رجل عجوز، اصطلحت على الأمراض، ولست صالحاً بعد لمثل هذه المتع!" وفي مساء اليوم الثالث يطمعون كما جرت العادة مع محظية الملك، وبعد ذلك ببضعة شهور عندما تحمل صديقته بطفل يحاول ثلاثتهم الوصول إلى قرار لنسبة الأبوة إلى الرجل المتزوج، يقول فولتير: "سندمج الغلام ببساطة، بين شتى أعمال السيدة".

وتحمل إلى الفراش وفولتير على مقربة وقد رفض أكثر دعوات ملك بروسيا إلحاحا، حتى يكون حاضراً، ليهون على صديقته، عند ميلاد طفل غريمه، وكل فرد في القصر في حبور، وفجأة، بعد أسبوع، تصيبها الحمى وتموت، ويقف عند فراش موتها الزوج والعاشق والصديق ثم يهبط فولتير في بطء، سلاليم القصر، وفي أسفل الدرج يسقط وترتطم رأسه بأحجار البلاط، ويسرع إليه غريمه ويقيمه وهو فاقد الوعي، وعندما يثوب إلى نفسه يلقي النظر على الشاب ويقول: "لقد قتلتها!".

وفي بوتسدام يعير يهودي تحميه السلطات[٢٠]، من برلين، الفرنسي فائع الصيت قطعتين من الماس نرمع الشاعر أن يلبسهما عندما يمثل دور فيقرون في رواية له تعرض أمام الملك، وقد استبقى فرديك فولتير، عدة شهور الآن، وعينه أمينا بروسيا، بمرتب سنوي يبلغ مقداره ٢٠٠٠٠

[٢٠] Schutzjude

فرنكا ولكن فولتير كان دائماً يعتمد، أكثر ما يعتمد على مضارباته المالية، ليعيشه وليس على دخل كتبه، غير المضمون وقد ظهر معظمها دون أن يحمل اسم المؤلف، ويوجد ذكر لإيصالات ضرائب في سكسوني وشراؤها محرم تحريما باتا في بروسيا، ولكن يمكن أن يحقق بها المرء أرباحاً هائلة، بسعر المبادلة الحالي، ويعجر فولتير عن التفرقة بين برلين وباريس ويظن أن هنا أيضاً يعصم المقرب إلى الملك من مثل هذه الأحكام فيرسل اليهودي إلى درسدن ليشتري له أوراقاً سكسونية بما قيمته ٤٠٠٠٠ فرنكا، ويعلم الملك سراً بهذا، ويثور غضباً.

ويسير فولتير في قضية طويلة بنشاط ويقدم تفسيراً مغايراً عن المسألة برمتها ليحمي شرفه في المحكمة وتوضع تسوية نهائية للمسألة ولكن أمام عيني الملك تلقى ظلام دائماً على شخص فولتير.

وعندما يثير فردريك، حادث آخر هو هجوم فولتير، دون توقيه، على موبرتيوس[٢١] **Maupertuis** مواطنه وشريكه على المائدة في سان سوسي **Sans Souci**، فيغضب غضباً عنيفاً ويدفعه إلى حرق الكتب في الشارع العام، فإن فولتير يعيد مفتاحه كأمين ونيشان الاستحقاق ووظيفته كصاحب معاش، مع هذه الأبيات.

لقد تسلمتها في رفق.

---

[٢١] فيلسوف وفلكي ورياضي فرنسي عين رئيسا للأكاديمية في برلين سنة ١٧٤٠ (١٦٩٨ – ١٧٥٩).

وأعيدها إليك في أسى.

كما يرجع عاشق غيور، وهو في مزاج سيء.

صور محظيته.

وفي نفس المساء يرجع الملك هذه الأشياء إليه ولا يسمح له بالرحيل، وبعد ذلك ببضعة أسابيع بعد مشاحنات أخرى، وصلح ومقابلات نارية، يقدم الشاعر إعلانا للملك أثناء عرض:

"والآن يا سيد دي فولتير إنك تريد نهائياً الرحيل؟."

"سيدي، إنها مسائل عاجلة، صحتي".

"عندئذ، أرجو لك رحلة طيبة يا سيد".

ولا يرى الواحد الآخر مرة أخرى، ولكن سرعان بعد ذلك ما يعاودان التراسل، بما يمتزج فيه إعجاب وحقد ورقة ويثابران عليه حتى موت الشاعر بعد ذلك بأربع وعشرين سنة.

لقد تعدى الآن الستين ويعيش بالقرب من جنيف كنبيل من الريف وتكتظ قلعته الصغيرة بالضيوف، يأتون من جميع الأقطار ليروه ويستمعوا إليه، والمركبة والخدم والطاهي من باريس وكاتم السر وسلسلة من الروايات التمثيلية من نوع الفاجعة على مسرحه الصغير حيث يقوم النبلاء أيضاً بأداء الأدوار مما كان يثير حفيظة أهل المدينة.

وهنا على خط حدود وطنه، الذي يضهده ويهدده لتفكيره الحر،

يعيش أكثر من عشرين عاماً، ويسعى هنا وهناك في أحذية وجوارب رمادية اللون وسترة من الحرير، فضفاضة وقلنسوة من القطيفة صغيرة أو شعر مستعار، عظيم، إنه يعمل دون انقطاع، إنه دائما ينهض بأمور وهو دائماً يتعلم أموراً ويتبقى نشاط وفسحة من الوقت لديه لينفق أسابيع في الترويح عن الرجال والنساء من قادة زمانه، ومن باب الحيطة، كان له ضيعة على التربة السويسرية وأخرى على التربة الفرنسية حتى إذا ما وقع عليه اضطهاد كان في قدرته أن يتسلل من الواحدة إلى الأخرى.

ومع هذا فكلما تقدم به العمر، يقل اهتمامه بإرضاء مطالب ضيوفه العقلية وميلهم للاستطلاع وبالحري يوجه عنايته إلى حالة الفلاحين وصيحاتهم لأجل العون، ومن مجلس مدينة جنيف يحصل على إذن بتصريف مياه المستنقعات حول ضيعته (قبل أن تتم فاوست**Faust** بنصف قرن): ويسترد مساحات من أرض الأعشاب ويحمي قومه من استبداد الطبقة الحاكمة.

والآن يسير الرجل العجوز خلف المحراث ويبذر حقلا صغيرا يطلق عليه اسم حقل السيد دي فولتير وقد خصص له، بصفة شاملة حتى تجاوز التاسعة والسبعين ولا يواتيه نشاط فيما بعد، إنه كريم بأمواله وأحيانا يذهب سخاؤه إلى حد المغالاة، ولكي يساعد المعدمين في جهته فإنه يدخل صناعة الساعات وهو أول من أدخل في هذا القطاع نسج الحرير، وقد عمل على تحويل المسرح إلى بيت لدود القز.

وفي الوقت نفسه، يعمل شهوراً ليحرر أسرة في تولوز- حكم عليها ظلماً قضاه متعصبون، إنه يكافح ضد فساد المحاكم الفرنسية وضد استرقاق عبيد الأرض.

إن العدالة هي لفولتير، مثله الأعلى، الأخير، وأشد عواطفه عنفا.

في أصيل يوم في فبراير تقف مركبة عند بوابة باريس الغربية وعندما يسأل موظفو الجمرك عما إذا كان يوجد شيء ممنوع فيها، يجيب صوت أجش لرجل عجوز "لا أعتقد يا سادة أنه يوجد أي شيء مهرب هنا إلا شخصي." ويلقي أحد الموظفين نظرة إلى الداخل ثم يقول للآخر: "يا للسماء ... إنه السيد فولتير! .."

وبعد حقب عديدة يزور باريس لأول وآخر مرة، إن غرضه في الظاهر هو تقديم المساعدة في إخراج مأساة جديدة على المسرح ومباشرة مسائل أخرى متنوعة- ولكن في الواقع كان يريد اغتنام فرصة أخرى ليرى باريس، وباريس يريد فرصة لتراه، ولقد أصبح مشكلة لدى البلاط والكنيسة جميعاً بما أن البلاط تحفزه الرغبة في أن يكون بمنأى والكنيسة تريد اجتذابه، ولكنه يقابل بتجلة من الأكاديمية ومن القادة في السياسة والتمثيل الفاجعي، وعدد يبلغ الثلاثمائة شخصاً يقدمون لرؤيته في يوم واحد، وهو من جانبه يزور، قبل أي فرد أخر، المرأة التي كانت أولى من أحب والتي لم يكن قد رآها منذ أن توثقت العري التي لم تكلل بنجاح، قبل ذلك بستين عاماً.

ويصيبه هلع من نتائج زيارته ويظهر أنها أصيبت بمثل ما أصيب لأنه، في اليوم التالي، تعيد إليه في إيجاز، صورة لنفسه وهو في شبابه.

ولأول مرة في خلال سبعين سنة يدخل فولتير، وكان مصابا بنفث الدم[٢٢] الوهن المتزايد، في حديث ديني مع كاهن، نعم إنه فولتير يعترف– ولو أن أحدا بالطبع، لا يعرف بما، وهو أيضا يسمح لهم أن يستدرج إلى مقالة منه يؤكد فيها أنه يريد أن يموت على دين الكاثوليكية "في حالة ما إذا كنت قد أغضبت الكنيسة فإني أرجو الله والكنيسة الغفران"، وقد أوصلوه إلى هذا عن طريق خوف غريب من أن جثمانه قد يلقى به في فناء العظام ولكن عندما أوشك الكاهن أن يقدم له السر المقدس، أوقفه الرجل العجوز بهذه الكلمات "تذكر إني لا أزال أعاني نفث الدم، يجب أن نأخذ حذرنا من أننا لا نمزج دم الله بدمي".

ويدفع عنه كل مزيد من عروض من جانب الكهنة، ويقول غاضباً إنه ما كان ليسمح به لو أنه كان مقيماً في جينيف ثم ترجع عافيته مرة أخرى، وتكون رحلته إلى الأكاديمية رحلة نصر.

وفي المسرح يقابل بتجلة لم تقدمها باريس أبداً من قبل الشاعر، وعندما يسير به أصدقاؤه من خلف مقصورة ينحني حنياً عظيماً حتى تلامس جبهته حاجز الدرج، وعندما يعود إلى رفع رأسه، فإن عينيه اللتين ظلتا حادتي البصر صافيتين خلال ثمانين عاماً، تغرقان في الدموع، ولكن

Hemopysis[٢٢] إخراج الدم المنزوف من الرئتين أو الشعب.

في داره يبتسم مرة أخرى ويقول: "لا علم لكم بهؤلاء الفرنسيين! ... لقد رحبوا بجان جاك روسو **Rousseau** بنفس الطريقة، وفي اليوم التالي أصدروا أمرا بالقبض عليه!". ثم يبتاع منزلا لنفسه ويحزم أمره على أن يختتم حياته في باريس.

ولكن النهاية تجيئ بعد ذلك بأسبوعين، إنه ينهار في سرعة ويموت في سلام.

وتنكر عليه الكنيسة قبراً، وعند التشريح يستولي الطبيب على رأسه الضخم ضخامة تجاوزت الحد، ويستولي صديق على قلبه، وفي الليل، يلف ذلك الجسمان الضئيل في رداء فضفاض وقلنسوة نوم، وكأنه شخص مستغرق في النوم ويشحن في سفينة مقلعة، إن الكنيسة التي لها كل سلطان لا تسمح للأكاديمية بتلاوة قداس لأجل الضال، ولا يسمح للصحف بأن تطبع كلمة عنه، ويرفت وكيل الدير لتقصيره في منع نقل الجسمان، ويدفن الميت سراً إلى جوار قريب له في الأقاليم.

ويكتبون سنة ١٧٩٠، بعد ذلك باثني عشر عاماً، وعند مجيئ الثورة تحمل رفات فولتير، في طريق النصر **Via triumphalis** إلى باريس وتوضع في البانثيون**Pantheon**، والغرفة التي كان فيها مرة، سجيناً في **Bastille** في برج الباستيل، تزخر الآن بالزهور والأغاني والنقوش، ومن خلال المشاعل والموسيقى، مارة بمئات الآلاف من الناس، تسير المركبة تجرها ستة أزواج من الخيول إلى باريس، وقد

نقشت على التابوت هذه الكلمات: "كشاعر ومفكر ومؤرخ قدم للروح الإنسانية وحياً عظيماً، ولقد أعدنا للحرية".

وفي ليلة من شهر مايو، بعد ذلك بأربع وعشرين سنة، يفتح عنوة التابوت المصنوع من الرصاص، في البانثيون، وتكدس عصبة من الشباب الرجعي عظامه في غرارة، ويحملون الغرارة إلى أرض معدة للبناء، قاصية، ويحتفرون حفرة، ويغيبون آخر رفاته على تخوم العاصمة.

ولا يعلم أحد أين أصبح جسمان فولتير هباء منثوراً.

جوته وشلر Goethe and Schiller

إننا نتعرف البشر بضعفهم، والفرد بإبداعه ... ونحن جميعاً نشترك في النقائص والأقدار، ولكن فضائلنا يختص بها كل واحد منا بصفة محددة.

يقف بضع مئات من الشبان صفاً في غرفة باردة مضاءة، والعقبان متصلان ورؤوسهم وجسومهم منتصبة، لأن دوق فرت مبرج **Duke of Wurttemberg** العجوز الواجم القاسي يهدد بنقد يعود فيه باللائمة على طلبة مدرسته الحربية، وفي نصف دائرة مكبوتة، يقف إلى الخلف منه بعض موظفي البلاط ... ويوجد أيضا بعض الضيوف من فايمر**Weimar** حاضرين، ويبرز من بينهم ابن عم الدوق، الشاب يتلوه الشاعر والوزير.

والآن يثني الدوق على عمل المجتهدين، وإنه وهو يقرأ قائمة وردت إليه من المدرب، يدعو أحسن الطلبة ليتقدموا إلى الأمام، وفي تعبير أقرب أن يكون إنذار منه إلى تهنئة، يدس بجوائز في أيديهم اليمنى، وفي صمت، يعبر الفائزون بالجوائز عن شكرهم بتحية، وهم أبداُ يراقبون في دقة، التعبير الذي يتجلى على أستاذهم لأنهم يرهبون جانبه.

ويوجد واحد فقط من بينهم لا يتطلع إلى الأستاذ، ومهما يكن من شدة رغبته في الحصول على جائزة لنفسه، فإنه لا يرى من الذين يستلمون الجوائز أو يسمع أسماءهم، إن عينيه لا تتزحزحان عن شخص الغريب ذاك

الذي يرتدي حلة غامقة الواقف وراء الآخرين إلى حد ما، كيف أنه يحاول في صمت أن يسير أغوار هذا الرجل الصامت! ... إذن، هذا هو الصمت الذي يظهر به شاعر يزينه الصيت وصنوف التكريم؟ لا شيء أكثر التماعاً أو أكثر جمالاً من ذلك! يظهر عليه الشحوب والنحافة ويكاد يصل فيهما إلى فرتر**Werther**. وسرعان ما سيدير عينيه النافذتين الواسعتين صوبي أنا أيضاً، والآن– لو أني فقط استطعت أن ألفت نظره، بالحملقة، لارتميت عليه، ولصحت من أعماقي **Et in Arcadia ego!**[٢٣] "وأنا أيضا عشت في أركاديا"! ... ومع هذا فإنك متكبر، إن بصرك لا ينفذ إلى أعماقي، كما يجب على الشاعر أن يفعل، إنك لا تدري بما يدور في أعماقي ... كيف أنك تبتسم وتومئ برأسك ... لقد غدوت خادم أمير، مجرد رجل حاشية، يا لعظيم مقتي لهم! ... عن بكرة أبيهم! .. وأنت أيضا الذي خنت عبقريتك! .. إن شحوبك من فرط الإعياء؛ وما أنت عليه من وهن نتيجة الغلو في الإفراط، لا، إنك لست بعد، بشاعر ......

ويصيح الدوق بصوت عال وهو يقرأ من القائمة، فردريك شلر! ... **Friedrich Schiller**، ويفيق الشاب ويخطو إلى الأمام في ارتباك ويقبل في احترام هدب سترة سيده، ويعود– وهو لا يكاد يحس الجائزة في يده– إلى الصفوف كمن يسير وهو نائم.

---

[٢٣]نقش على قبه في مصورة بوسان **Poussin** (رعاة اركاديا) وبوسان هو أستاذ التصوير الكلاسيكي (الاتباعي) في فرنسا، ومن أعظم صوره **Les Bergersd'arcadie** وهذه و **La fuite en Egypte** الهروب إلى مصر (١٥٩٤ – ١٦٦٥).

ويفكر الآن، إنه كتاب، إنك دسست كتباً في يدي اليمنى يا دوق! .. سأدفع سريعاً بكتاب إلى قلبك إلى أن يستحيل إلى حجر! .. هل هذه جائزتك؟ لقد بلغت العشرين وعندما يكتمل لي ثلاثون حولا مثل ذلك الرجل فعندئذ سأحس بجائزة دائمة الازدهار على جبيني وسيتطلع هو، بينما الأمة بأجمعها تقدمها إلي! ...

وبعد ذلك بعشر سنوات، في إحدى الأمسيات الهادئة من شهر أغسطس، يجلس شلر إلى ما لديه من رحيق الراين في منزل جوته الصيفي، لقد ترك الأكاديمية الحربية، ولكن في خلال سفره وتجواله وفي فترات العدم أو المجد لم تغب عنه ذكرى جوته هذه، ذاك الذي كان يقف هناك في صمت، وفاته تماماً أن يتبين أنه هنا، أمام ناظريه، كان عبقري يتسلم الجائزة، ويأتي شلر إلى فايمر ويحسن استقباله هناك في دوائر رجال الفكر، ولكن الغريب لا يجد هنا الرجل الذي يمكن أن يجري عليه الآن، نهائياً اختبار مشاعره التي كانت مزيجاً من القلق والتبجيل والميل إلى الاستطلاع والتشكك، لأن جوته موجود في روما، ولا يوجد شيء هنا يمكن رؤيته إلا منزله، وكان منزلا صيفياً صغيراً، مع هذا- لأن أصدقاء جوته اجتمعوا هناك يوم ذكرى ميلاده، والشاعر الجديد من بين الضيوف، ويقر شلر الكؤوس مع نبيل **"Kanebel"** في صحة مضيفهم في هذا المنزل الصغير الذي عاش فيه جوته ستة أعوام، ويشرب شلر نخب جوته الغائب، والصيف في ذروته.

ولقد سمع في فايمر تقارير متعارضة تعارضا ملحوظا عن هذا الرجل العجيب، وكان أشخاص عديدون يقفون منه موقفاً غير رفيق، وتحدثوا ضده، والقليل من أتى لمناصرته في عاطفة عميقة، ومع هذا فإن هذه القلة كانت على ما يظهر هي الأفضل، ألم يتحدث أفراد من أسرة لنجفلد **Lengefelds** في رودلشتادت **Roudolstadt**– هم زوجة المشرف على الصيد وابنتاها– في إعجاب عن عبقرية جوته، وهذه كانت أعظم أسرة لها مكانة ممتازة في المجتمع، كسب شلر الاتصال بها، ومع هذا فإن سوء طبع صديقتهم، السيدة فون اشتين **Frau Von Stein** بدأ يؤثر تأثيرا سيئاً في سمعته، وكثير من الموظفين كانوا يلمزون بأركان أفواههم عندما كان الغريب يسأل عن جوته: كم سيطول مكثه، وماذا سيفعل؟ على أية حال؟ كانت نقوده ترسل إليه– عن طريق المجلس، في انتظام أينما ذهب، ومرة أخرى، يشعر شلر بعد الرضى، وما أوفر حظ هذا الرجل في كل شيء، وما أكثر ما تقع الأمور في صالحه بانتظام، بينما نقاسي جميعاً مثل هذه الشدائد! ... هل هو أفضل، بهذاالمقدار؟ إنه ينتمي إلى بيت أفضل وحسب، وبهذا فهو أفضل تعليما، وهو أسعد، وهو عشر سنوات تقدماً في العمر فقط! وفي حديثه وفي خطاباته، يعيد كل الأمور الحاقدة التي يسمعها عن جوته.

وعندما يرجع جوته في يونيو التالي، يبلغ ميل شلر للاستطلاع الذروة: "إني أتعجل رؤيته، إن القليل من بني الإنسان، أثاروا في نفسي

هذا القدر من الاهتمام". إن له أصدقاء يقولون له "كل شيء جميل هناك، يتحتم قوله" وسرعان ما تقدم السيدة فون اشتين إلى الريف في زيارة لأسرة لنجفلد، ومن شفتي هذه المرأة، التي يجب أن تتوافر لها المعرفة حقاً، يحصل شلر على وصف لجوته منذ عودته، فاتر ولا وهم فيه، ويجول في فكره "يا روحي التي تقدر على التنبؤ"، ولكن عندئذ تقع مسرحية افيجني **Iphigenie** بين يديه، ويعكف على قراءتها مرة أخرى وتتيح له "يوماً جميلاً جداً، على الرغم من أني دفعت للمتعة التي قدمتها لي ثمنا هو الإدراك الذي يدخل الأسى إلى النفس بأني لن أستطيع أبداً إنتاج شيء شبيه لها".

ومع هذا: ألا تأتي لرؤيتي؟ وفي خطأ تام يكتب إلى صديقه: "كان يمكن أن يزورني جوته، لو أنه علم أن طريق عودته إلى فايمر يجعله قريباً من مقري، ولم يكن بيننا أكثر من ساعة ... لن يكون بينه وبينك يا فرد ريش شلر أكثر من خمس دقائق، ومع هذا فلن يأتي لرؤيتك!" ...

وبعد ذلك ببضعة أسابيع، في يوم ساطع من شهر سبتمبر، يوم لا يزال يدعو دفؤه لأن يمضي في الهواء الطلق، يتقابلان في النهاية في جمع من النبلاء والعلية، وكان بينهم أفراد أسرة هردر **Herder**، وكذلك السيدة فون أشتين.

ويكتب شلر لصديقه كيرنر **Korner**: "أخيراً، أستطيع أن أحدثك عن جوته، إن أول رؤيتي له حطت بالفكرة العالية التي عمل الغير على أن

أكونها عن هذه الشخصية الجذابة الجميلة، إنه متوسط الطول، منتصب القامة عندما يسير، ويظهر عليه التحفظ وأن كانت عيناه معبرتين جداً، وتشيع فيهما الحيوية ويتتبعهما المرء في انشراح.

إنه جاد كثيراً، ومع هذا يتجلى فيه الخير والطيبة ... ولقد تعارفنا بسرعة ودون أقل قيد، ويقيناً كان الحفل كبيراً، وكان كل فرد راغباً في التحدث معه حتى أنه لم يتيسر لي كبير زمن للانفراد به أو التحدث معه عن أي شيء غير أهم الموضوعات ... وأشك فيما إذا كان أبداً ود وثيق يقوم بيننا، لقد مرت به تجاريب عديدة لا تزال تثير الاهتمام في نفسي، وهي بالنسبة لي لا توال في مرحلة الرغبة والترقب ... إنه يتقدمني مسافة بعيدة حتى أن طريقينا لن يتقاطعا أبداً مرة أخرى ... وليس عالمه بعالمي، وأساليبنا في النظر إلى الأشياء تظهر مختلفة اختلافاً جوهرياً .. والزمن سيكشف عن البقية".

هل هذا كل ما هناك؟ هل اقتصر الأمر كله على مجرد الاستماع إلى ما قاله جوته عن شعب نابلي، وتفصيلات أخرى عن إيطاليا؟ هل اقتصر الأمر على مجرد يوم من أيام الآحاد كثر فيه تجاذب الحديث بين سيدات مواليات وسيدات غير مواليات... وبعد كل آمال شلر التي كانت تساوره في زهو، كان هذا هو اليوم التاريخي الذي تقابل فيه شلر وجوته، لأول مرة وجهاً إلى وجه!. ما أقل ما رأى خلال قناع جوته وهو لا يكاد يدرك أنه يضع قناعاً، وقد غاظه ما حدث من أن جوته لم يتحادث معه

وحده، ولم يتناول أبداً موضوعات كان لهما فيها اهتمام متبادل، ومع هذا فسرعان ما يستفيق من خيبة الأمل ويستعيد ثقته بنفسه وهو يضع نفسه على قدم المساواة مع جوته، ويقول شارحاً لصديق: "إننا جد مختلفين حتى لا يمكن أبداً أن تقوم صلة وثيقة بيننا"، ولكنه يضيف في عجلة: "إن الزمن كفيل بجلاء الأمر".

ويمر الزمن، وشلر ينتظر.... وفي يوم الأحد ذاك عندما كان يؤمل عبثاً في كلمة خاصة من جوته، كان ما أعده من نقد عن أجمونت– أو ضد أجمونت، على الأصح– يشق طريقه إلى الصحافة؛ وكان من الخير أنه كتب، وإن لم يظهر بعد، لأن هذا يمكننا من أن نرى الرجلين يهز الواحد منهما يد الآخر لأول مرة وهما متحرران من القلق ومن الغرور، وبعد ذلك يرى جوته في نقد شلر نوعاً من الاتجاه السائد الذي واجهه منذ عودته، ويأخذ الحرد من شلر، لأنه يرى في جوته شخصاً حباه الحظ، يوقع الهزيمة بالعالم دون أن يصاول العالم، ويأخذ الحرد من جوته لأنه يرى في شلر المغتصب لآلهة الفن الذي يعتقد أنه قادر على إيقاع الهزيمة بهم دون أن يصارع، وفجأة يظهر لجوته أن العشرين عاماً التي أنفقها في الكفاح من الفوضى إلى النظام وعمليته الملهمة في استخلاص الذهب من مناجم الشيطان، يأتيها التهديد من الخارج، لأن هذا الشاب قد بدأ مرة أخرى يوحي للألمان بالفوضى: لماذا يجب عليه أن يقابل شلر في تودد؟ قد لا يكون في حاجة إلى أن يكرهه بطريقة إيجابية، ولكن آراءه بشعة.

ومع هذا، فإن شعوراً بالكراهية الشخصية لجوته يبدأ يستولي على شلر، وقد كانت آراء جوته هادية له، وكذلك كانت مصدر ضيق لشخصه ومن أكتوبر يمضي الشتاء بطوله في نفس المدينة الصغيرة معه، حول الركن، كما يجوز للمرء أن يقول، ويختلط بأصدقائه، وكثيراً ما يرى "نيبل" و "مورتز"، ولكي جوته لا يتقدم خطوة واحدة، حتى أنه يتجنبه، في أدب، في الفرصة أو الفرصتين اللتين تتقابلان فيهما، وفي الوقت نفسه كان على شلر أن يصبر على تمجيد مورتز لجوته، وعن عمد، يدعو مورتز إلى التحدث عن جوته، ثم يحز به الألم لما يقوله زميل عدوه هذا، له ويعود مورتز إلى منزل جوته الفخم، الذي يعيش فيه، والذي ينكر على شلر وحده دخوله، وبعد ذلك ببضعة أيام، عندما يظهر مرة أخرى، ينتظر شلر في لهفة أن يسمع شيئا عما إذا كان جوته قد ذكر "دون كارلوس" لأنه مهما بلغ عنف جوته فإن أعظم ما كان في حاجة إليه، أن يحكم عليه الشاعر كشاعر، حتى لو كان الحكم في غير صالحه.

وجوته لا يهمل فقط توجيه النقد إلى شلر، ولكنه لا يذهب حتى إلى التحدث عنه، ورغبته الوحيدة هي أن يستقر شلر في مكان آخر، وهو ينزعج عندما يوجه الناس التفاته، في حذر، إلى شلر، وعندما يعود إلى المنزل يجد صحبة قد تغيروا، غير آبهين لشيء، ويداورون، ولكنه يستنكر فرض خصم عليه، لأن جوته الذي تبعث مؤلفاته ومشروعاته في شلر مشاعر تمتزج فيها العداوة والإعجاب، لا يهتم مطلقا بفن شلر.

ولكي يقصيه عن المدينة، فإنه يضع خطة ليحصل الشاعر على كرسي أستاذ في "ينا" **Jena**، ويسير في سرعة بمشروعه الماكر، ومن شهر ديسمبر يعمل على جس فكر شلر في الموضوع، وعندما يوافق شلر، يطلب تصديق دوق جوته في اليوم التالي، وبالذات، وفي نفس الوقت الذي أرسل فيه هذا الالتماس الرسمي، يعلن جوته شلر في خطاب، أنه يمكنه أن يعتبر المسألة في حكم المنتهية، ومعنى هذا، أنه كوزير للتعليم– يعين شلر أستاذا للتاريخ، والآن يجب على شلر أن يذهب ويشكر له: "في نفس الوقت، قمت بزيارة واحدة لجوته، ولقد استبد به الحماس في هذه المسألة، ويظهر عطفاً عظيما لما يعتقد أن فيه أعظم نفع لي".

ألا يقدر هذا الرجل الذي يصدر الأحكام على البشرية، الحكيم في أمور الدنيا، أن يتعرف الدوافع الحقيقية التي تحفز خصمه؟ ألا يلحظ أن هذا الرجل تحدث إليه فقط كوزير فايمر دون أن يجسر على التقدم خطوة واحدة في ذلك النطاق الذي لا حد له، وهو الوطن الحقيقي لهما جميعاً؟.

في ذلك الوقت، كانت رغبته في كسب عطف هذا الرجل قد تعاظمت إلى حد أنها تعترض تقديره.

وقد حاول جوته أيضا لأن يلثم[٢٤] قدرته على التمييز، بطريقة أخرى، لأن معاملته لشلر كان أساسها قراءة خليقة شلر، وبعد عشر

---

[٢٤] ثلم من باب ضرب.

سنوات حالكات من التجوال والثورة– أراد شلر– الذي يبلغ الثلاثين من عمره– أن يستقر، لقد كان في حاجة إلى ضمان مركز وإلى بيت، وشعر الآن أن الهدوء والانتظام كانا لازمين لعلمه، والحق أنه عندما يكون مع الأختين: لنجفلد اللتين كان يدلي إليهن باعترافاته، فإنه كان يتخذ الوضعة النبيلة "للاستسلام الذي يتصف بالبطولة".

ويذهب به الظن إلى أن العرض فرض عليه "قسراً"، وأنه يود أن يرفضه ويمتدح الحرية الذهبية، وهو في الواقع، لم يكن قد عين رسميا بعد، وكان يمكنه الانسحاب في أية لحظة، ولكن لم تكن لديه رغبة في ذلك، حتى أنه يصرح لصديقه الحميم "كرنر" بأنه جد مغتبط، وهو يريد أن يلقى مرساه، وبينما يحاول أن يخلص نفسه من موضوع حب مضطرم مع السيدة فروفون كالب **Frau Von Kalb**، الموهوبة، فإنه كذلك يفتش عن امرأة ذات ثراء ومن أسرة عريقة، لأنه يريد الآن، بصفة نهائية، المال والمنصب.

إنه لا يستطيع الاختيار بين الأختين وكلتاهما ذات لقب، وهو يصرح لكلتيهما بحبه، وإن كان في الوقت نفسه يكتب إلى صديقه عن احتمالات أخرى عديدة، وقبل الخطبة بشهرين، يطلب إلى "كرنر"، مرة أخرى، أن يعاونه على أن يجعل الزواج متكافئا، ويذكر أقل مبلغ تمس الحاجة إليه.

وفي الوقت نفسه، علمت صديقة العروس، السيدة فون إشتين بحب جوته لكرستيان **Christiane** وتصبح البيئة التي يعيش فيها شلر،

الآن، وقد تجردت تماماً من روح الصداقة لجوته مع أنه لا تقلع واحدة من الأختين "لنجفلد" عن أعجابها بعبقرية جوته.

وينفذ صبر شلر ويصيح علناً إلى صديقه: "إن هذا الرجل، إن جوته هذا، ببساطة، يقف في طريقي"، وفي حسد لا تحسن مداراته، يشكو من الحال التي جعلت من السهل على جوته الظفر بمزاياه التي لا تمكن محاكاتها، نعم إنه يعلن جهراً، قبل الرحيل إلى ينا، مزيج الحب والكراهية، العنيف الذي أثره جوته فيه:

"إن عبادة الصم التي يتابع بها مورتز، جوته والتي يغلو فيها غلواً بعيداً– حتى أنه يرفع من شأن مؤلفاته الوسطية، إلى مرتبة الأسفار المقدسة ويمتدحها على حساب جميع ما أنتجته عقول البشر– أقصتني عن توثيق الأسباب معه ... أكون شقياً لو كنت على غرار جوته، إنه لا يفصح تماماً عن طوية نفسه، على الإطلاق حتى إلى صحبه المقربين، إنه يتجنب كل فرد، وإنني في الواقع، أعتقد أنه محب لذاته إلى درجة غير معهودة، إن له أسلوبا في اجتذاب الناس يعرف به كيف يكتسبهم إلى جانبه بأنواع من المعروف قد تكون تافهة أو هامة، ولكنه دائما يتبصر لتجنب الوقوع في الحبائل، إنه يعلن وجوده عن طريق ما يسديه من صنيع، ولكن على أسلوب آلة دون أن يبذل شيئاً من ذاته، وأخال هذه سياسة ... ثابتة أعدت لتأتي بأعظم ما يرضي حب الذات، ويجب على الناس ألا يسمحوا لشخص ركب فيه مثل هذا الطبع بالدنو منهم، ولعذا

السبب فإني أمقته وإن كنت في نفس الوقت أعجب به، وعقله يجتذبني، بكليتي، وإني أعتبره كالمتعاظمة التي تدعي الخفر[٢٥] فهذه يجب على المرء أن يجعلها تحمل بغلام لتحس الضعة أمام أنظار العالم، إنه مزيج غريب جداً من الحب والكراهية ذلك الذي يثيره في أنه شعور لا يفترق عن ذاك الذي كان يحسه بروطس **Brotus** وقاسيوس **Cassius** نحو قيصر، في استطاعتي أن أحطمه ثم أحبه مرة أخرى بكل جارحة في ... إن عقله ناضج، ورأيه عني ينحرف أكثر ما ينحرف، على الأقل، ضدي وليس لصالحي، وبما أن همي الأوحد في هذا الأمر هو أن أسمع الحقيقة عن نفسي، فإنه الرجل الوحيد الذي أعرفه، القادر على إسداء هذا الصنيع إلي، وسأحيط به من يأتوني بالأخبار لأني لن أساله بتاتا بشخصه، أن يأتي علي بالتحليل.

ولا يوجد مكان آخر غير هذا، يعبر فيه شلر عن مشاعره نحو جوته كما في خطابه الهائج الذي لا يكاد يبين شيئا عن جوته، ولكنه يفصح بكل شيء عن شلر، إنه يعمل على تجليه نقاوة جهوده الشاعرية وضميره الفتى وإجلاله لكل شيء عظيم وجميل، بينما توجد دلائل تنم عن طموحه وحسده وفي استحياء المتعالية التي تدعي الخفر، يعبر عن شوق الرجولة العنيف، للسيطرة على موضوع حبه.

وفيما أعقب ذلك من سنين لم يدافع أبداً عن خليقة جوته في

[٢٥] الخفر: شدة الحياء.

حماس كما يهاجمها في هذا الخطاب حيث تفسد عليه عداوته تقديره، ولم يتح لشلرأبداً أن يصحح نهائياً هذه الفكرة الخاطئة تماماً عن خليقة جوته وإن كان قد كتب عبارات ودية ليبين أنه الآن يستجلي ما ينطوي عليه جوته من إخلاص، ويبدو في الظاهر فاترا، ولكن في الوقت الحاضر، يرى شلر في جوته ما يراه كل العالم وحسب، وما كان يراه معظم الألمان حتى بعد ذلك بمائة عام.

وبهذا الإسهاب يختتم فصل جوته، وبعد ذلك بثلاثة أيام، حين يكتب على هذه الزتيرة عينها– وغالباً بنفس العبارات– إلى كارولين يختتم خطابه وكأنه يلخص نتيجة: "ضع هذا الحكم إلى جانب، وقد يكون الزمن كفيلا بتغييره، أو أفضل من ذلك أن يأتي بنقيضه." وعندما تأخذ كارولين على عاتقها حماية جوته يصرح شلر بأنه يود أن يكون على انفراد مع جوته في جزيرة جرداء للتوصل إلى حل مشكلة خليقته هذه، ولكن لديه مشاغل أخرى: "إذا كان جوته مثل هذه الشخصية المحبوبة فسأكشف في النهاية عنه في ذلك العالم الذي نكون فيه جميعاً ملائكة، وأقول جاداً كل المجد، إني أسرفت في الخمول، وأسرفت في الكبرياء حتى أتمكن بالصبر من أن يشرح لي إنسان جلية أمره ... فمهما بالغ إنسان في الكتمان فلن يظل مستخفياً عن غيره، وهذا ما حزمت الرأي عليه.

لقد استقر رأيه في جلاء على الاستسلام، والتخلي عن كل

محاولات أخرى، ومع هذا، فإنه في الوقت ذاته، يضع نفسه على قدم المساواة مع جوته، ويدعو إلى عمل فيه تنافس، وهو يتحدث الآن في نبرات التصميم لرجل يريد، بعد خطبة طويلة أن يعاقب سيدته لأنها لا تلين، فيقدم للعالم سبباً يعجب له ويقدم لها سببا تأسف له.

وبعد سنة ونصف من هذا، يجلس شلر الزوج والأستاذ الذي يربطه الزواج بأشراف ثورنجيا، يحبوه بالتكريم الطلاب والعلماء والكتاب، في منزله الذي أثث يذوق في يناه، وكانت زوجه تعرف جوته منذ الطفولة، وهو نفسه يلاقيه بين حين وآخر في منازل أصدقاء لهما، وعلى هذا فليس من المستغرب أن يدخل جوته بيته، وليس من المؤكد أن هذا حدث أكثر من مرة، ويذكر شلر أن الحديث سرعان ما تطرق إلى كانت **Kant**، "لا قبل بجوته إطلاقا على أن يرتبط بمجامع قلبه بأية عقيدة، وعنده، أن كل فلسفة هي فلسفة ذاتية ... وأسلوب تفكيره ينزع نزوعا إيجابيا إلى المادية في أبعد حدودها، وعندي أنه يغرق في النزعة إلى المحسوس، ولكن عقله نشيط، يتجه إلى النقد في جميع الاتجاهات ويحاول أن يكون لنفسه كلا موحداً، وهذا فيما أذهب إليه ما يجعله رجلا عظيما، وعدا هذا فإنه متورط في السخافات إلى حد عظيم وقد بدأ يتقدم في العمر، واهتمامه بالنساء، وهو الذي كثير ما أفرط فيه، وعلى وشك أن يجلب عليه النقمات[٢٦]. وأخشى أن يرتكب حماقة ويسهم في

---

[٢٦] انقم نقمة والجمع نقمات.

المصير العادي لعزب قديم متأصل .. وفتاته هي ثمة آنسة تدعى فلبيوس قد أتته بغلام ... ويظن أنه شغوف كل الشغف بالغلام، وأنه كان قد أقنع نفسه بأنه إذا ما تزوج من خادمة فإنه يفعل ذلك لحبه للطفل، وأن هذا، على الأقل، يمكن أن يجعل الموضوع بمنأى عن السخرية.

والنغمة الجديدة: أن شلر الذي كانت تعذبه، طوال سنين، الغيرة من مركز جوته الاجتماعي، بينما لا يساوره شيء غير الإعجاب، بعبقريته– يشعر لأول مرة بأنه أعلى قدراً من خصمه اجتماعيا! .. إنه صهر وابن عم، وذو قرابة لأشخاص من ذوي الألقاب وقد قدم إلى البلاط، وهو أستاذ وعضو في الهيئات التي تضم العلماء، وعلى ثقافة عالية في مذهب كانت **Kant** يسعى إليه المنتجون والناشرون الألمان، وهو الآن موفور العافية إلى درجة لا بأس بها، وعلى النقيض من هذا ذلك الرجل الذي يتراجع تراجعاً غريباً، ولا يزال يحاول أن يمسك بأشياء، اعتبرناها، نحن الفلاسفة، منذ عهد بعيد، أفكارا مجردة، ولا تجد رواياته أبداً سبيلها إلى العرض، ثم إنه لم ينتج شيئاً جديداً من أعوام خلت، ويسير إلى الكهولة في سنية الأربعين، إنه يعيش الآن مع خادم لا يدعوها أحد مطلقا إلى أي مكان، وله طفل غير شرعي، وهو يهوى تماما كغيره من الناس.

ويزهو شلر بأنه قادر على الشعور بالشفقة نحو جوته وإنما عبقريته التي لا يتطرق إليها فساد هي التي تعوقه عن الشعور بأنه يتفوق عليه.

وتتحسن مكانة شلر، وبعد ذلك بسنتين، وكان لا معدى عن ذلك، يعرض جوته دون كارلوس **Don Carlos** على مسرح البلاط، ومع هذا تظل العلاقات فاترة بينهما، وطيلة ست سنوات، لم يكتب جوته أو يحرر كلمة واحدة عن شلر! .. ويفيض بعد ذلك فيقول "لقد قاومت كل مجهود بذله أصدقاء الطرفين لجمعنا معا .. ولم تكن مقالته **Die anmut und wurde**، الظرف والكرامة" لتجعلني أصفح .. وقد رأيت كيف أن فقرات عنيفة معينة يمكن أن تطبق مباشرة علي لقد استعرضوا عقيدتي في ضوء كاذب".

ويطرد موقف شلر في التحسن .. إن لديه وفرة من المشروعات لدنيوية وسرعان ما ينصب بالأستاذية وكذلك هبطت جاذبيته كمعلم، ويراوده الأمل بأن يصبح مربيا لولي العهد كوسيلة لتأمين مستقبله، ويستولي على موارد عظيمة من كونت وأمير ويضع تدابير للنشر وله معاملات مالية مع أربعة ناشرين في وقت واحد، ورسائله التي يقوم بها في نطاق واسع تجعله على إلمام بكل شيء يكتب ويتحدث عنه ويلتف حوله جمع في ينا، وهو بكليته الناقد والفيلسوف الذي لم يكتب تمثيليات الفاجعة، والقليل من الشعر القيم بين الثامنة والعشرين والسابعة والثلاثين من عمره ولكن قرابة هذا الوقت تصيبه نوبة سل تصحبها تشنجات، ويكون من شأن هذا أن يقف عائقا في سبيل مشروعاته العديدة، إنه يعوقه عن قبول عرض شركة كوتا **Cotts** المغري ليحرر صحيفة سياسية جديدة.

لأن كوتا كشف في شلر، مع مواهبه في الشعر قدرة عظيمة على تحرير الصحف السياسية، والآن وجد الأثنان مجلة شريفة تجتذب إليها المؤلفين عن طريق اسم شلر والنسبة العالية لما يقبضونه من مال، وقد وثق شلر الروابط بالأخوين همبولد **Punboldt** وهما الآن شابان يعملان في "ينا" مع وآخرين غيره ويحاول الأن أن يصطاد الثلاثة العظام هرتر **Herder** فخته وكانت **Cant** جوته **gouta** باسم "جمعية لا حد لإعجابك بها".

وعندما يتسلم جوته خطاب شلر، يدرك أنه سيلحق بنفسه ضررا أكثر مما يلحقه بالمجلة الجديدة إذا تحاشى شلر الآن، ومن صالحه أن يرتبط بهذه الصحيفة، ويقول في رده: إنه سيبتهج بالتعاون مع رجال من الطراز الأول كهؤلاء، وعندما يعيد تجربة الدليل فإنه يهبط فجأة إلى نغمات أكثر تحمساً.

وبعد شهر من هذا الخطاب، يتقابل الشاعران على أرض محايدة حقا، في جمعية التاريخ الطبيعي في ينا، وبالصدفة- كما يعن للناس أن يصفوا مثل هذا الترابط بين الحوادث- يغادران الردهة معاً، ويشكو شلر من الميل إلى تقسيم دراسة الطبيعة إلى درجات صغرى، أكثر مما يجب، ويقول إن هذا يبعد الرجل العادي، وجوته الذي يحس أنه رجل علوم إذا قورن بهذا الفيلسوف، يشاطره الرأي، ويذكر طريقة أخرى لمعالجة موضوع الطبيعة فيوضح أنه يمكن معالجة الطبيعة كمادة تفيض بالحياة

وبالنشاط وأن يسير المرء فيها من الكل إلى الجزيئات.

ويرهف الفيلسوف السمع: من الكل إلى الجزيئات؟ أي بالاستقراء[٢٧] كيف يكون من الميسور استمداد مثل هذه المسائل من التجربة؟

ثم يصلون إلى منزل شلر، ويذكر جوته بعد ذلك: "لقد أغراني الحديث على المضي فيه، وعندئذ ناقشت في تلهف تطور النباتات ... وجعلت نبتاً رمزيا يذكو أمام عينيه، وأصغى إلى هذا كله وطفق يرقبني في عطف بالغ وإدراك وطيد، ولكن عندما انتهي، هز رأسه وقال: "ليست هذه حقيقة تجريبية، إنها رأي" وأمسكت عن الحديث وقد حل بي شيء من الضيق، لأن محور الموضوع بيننا قد اتضح في جلاء ... وكان العداء القديم على وشك أن يعود في توكيد، ولكني كبحت جماح نفسي وقلت: "سيكون هذا رائعاً أن تكون لدي أفكار دون أن يكون لي علم بها وإني أراها رأي العين! .."

وبقد أجاب شلر الذي كان أكثر دهاء مني وأقوم أدبا والذي أراد ... أن يسترضيني لا أن يصدني بسبب دي هورن **Die Horen** إجابة مثقف في مذهب كانت، ولما كانت واقعيتي ذات العناد كثيرا ما تثير اعتراضه الشديد فإنه كثيراً ما كان يقوم الجدل بيننا، وفي النهاية نعلن الهدنة، مع أن كل واحد منا لم يكن في استطاعته أن ينسب الظفر إلى نفسه، فإن كلامنا كان يعتبر موقفه لم يشن هجوم عليه، وجمل كالآتية

---

[٢٧] الاستقراء **Induction**: هو تتبع الجزيئات للتوصل منها إلى حكم كلي.

كانت تسبب لي بالغ التعاسة: "كيف تتأتي أبداً معرفة تجريبية يمكن أن تطابق فكرة؟ إن الصفة التي تختص بها فكرة ترجع على التحقيق إلى الحقيقة الواقعة، وهي أن الحقيقة التجريبية لا يمكن مطلقا أن تكون شبيهة لها شبهاً كلياً! .." وعندما يغادر جوته المنزل ويرجع بخطوات واسعة، في تلك الليلة من شهر يوليو، إلى مسكنه يقول لنفسه: "إن شلر يسمي نفس الأشياء التي أطلق عليها– حقائق تجريبية– أفكاراً وعلى ذلك يجب أن تكون هناك وساطة اتصال بيننا! .."

وفي صباح الغد يسافر عائداً إلى فايمر.

وفي الحلبة اليت تدور فيها مساجلات الفلاسفة ورجال العلم[٢٨] التي لا تنتهي، تقابل هذان الرجلان في هذه المحادثة الحاسمة، ونكاد ننسى أنهما شاعران، ومع ذلك لا توجد أدلة على خصومتهما الفنية أعظم من أول مظهر لاجتماعهما معا، هذا، هنا، كان يوجد تياران على طرفي نقيض، كانا في حاجة إلى جهود حقبة من الزمن، قبل أن يتم التوفيق بينهما، وكتب جوته لا يمكن: أن ينكر أحد أن النقيضين العقليين تفصلهما مسافة أعظم من قطر الأرض بما أن الواحد يمكن أن يكون القطب المقابل للآخر، ولكن لهذا السبب عينه، فإنه لا يمكن أن تنتظمهما وحدة.

وكمفكر، فإن شكر لا سبيل للفساد إليه، ولن يتخلى عن خطوة واحدة، واجتماعياً يحاول أن يناظر جوته، على أعظم ما يستطيع من أدب،

[٢٨] العلم Science يطلق على ما يقابل الأدب والفلسفة، وعلى مجرد إدراك الحقائق.

وفي تعبير جوته، كان يستمسك بكل شيء يقترب منه بشدة وبذلت زوجه ما في وسعها ولكن كان، على التحقيق، هذا المزج الشلري[٢٩] من النقاوة في رغباته والتصنع في أساليبه هو الذي اجتذب الآن، جوته!، إنه كان دائماً يحب الذين يجهدون في الظفر بغاياتهم بالوسائل الماكرة، غير المحسوسة حتى لو كان هؤلاء الناس من خصومه، وفي ذلك المشهد أيضاً كان يظهر شلر حقاً، بمظهر أنطونيو **Antonio** كما بمظهر تاسو **Tass**[٣٠] ولما كان يعجب بعقل شلر الجبار وكان يدرك في جلاء ما كانت عليه الأمور في ذلك الحين،فإنه بعد أن جعله ينتظر ستة أعوام، وجد جوته الآن كل سبب ليمد يده إلى هذا الرجل الذي يصغره سناً، والذي أحرز مثل هذا التقدم العظيم في القوة والعقل وضبط النفس، وبعد مرور يوم على هذه المحادثة، عندما كان يرسل مواداً إلى دي هورن **Die Horen** كتب "أرجو أن تبقى لديك ذكرى صداقة، ودعني أؤكد لك بأني أتطلع إلى أمل تبادل الآراء معك مراراً عديدة.

ويعلم جوته تمام العلم ما يكون لكل كلمة من هذه الكلمات من أثر على الرجل الذي تصل إليه، ويعالج شلر الجمل الغالية كسيا، ولما

---

[٢٩] نسبة إلى شلر.

[٣٠] **Torquato Tasso** – شاعر إيطالي عظيم واضع بيت المقدس المنقذ **La gerusalemdelivree**، وهي تزخر بالصور الرائعة الملهمة وتضعه في مصاف شعراء الملحمة وكان ذا كبرياء وصلف، يشكو من الأمراء الإيطاليين ونكرانهم للجميل ومات فقيراً (**١٥٤٤** – **١٥٩٥** م).

كان جوته على سفر، فإن شلر يسمح بمرور أربعة أسابيع قبل أن يكتب إليه: هل يجب أن نسميه خطاباً؟ إنه عجالة فلسفية عن جوته تصلح لأن تلقى في ثمة مناسبة كجنازة أو خطاب في الذكرى السنوية لرجل طعن في السن، ولكنه ليس بتاتاً من ذلك النوع من الرسائل التي يمكن أن يبعث بها المرء إلى رجل في متصف العمر، وطريقته الوحيدة في التقديم لهذه المقالة غير المتوقعة من جوته هي أن يقول في البداية إن محادثته مع جوته جعلت "رصيده من الأفكار" يتحرك ويكتب شلر:

إن كل شيء يسعى إلى التحليل في صبر، وأكثر من هذا يوجد داخل حدسك[31] الذي لا يخطئ، ولأنه فقط يوجد فيه ككل، فإن الثروة التي تملكها تستخفي عنك.

وعلى هذا فإن عقولا مثل عقلك، يندر أن تدرك المدى الذي تقدمته ولا يوجد لديها أقل سبب لكي تستعير من الفلسفة التي يمكنها فقط أن تكتسب العلم منها ... ومنذ أمد بعيد، كنت أرقب، ولو من بعد سحيق، تقدمك العقلي ولحظت في إعجاب دائم المذهب الذي شققته لنفسك، إنك تبحث عن حقائق الطبيعة الأساسية ولكنك تبحث عنها عن طريق هو أعظم الطرق وعورة ... إنك تسير خطوة خطوة من المتعضي[32] البسيط إلى الأكثر تعقيداً حتى تصل في النهاية إلى تركيب

---

[31] الحدس **Intuition** إدراك الذهن لموضوع الفكر إدراكاً مباشراً ويقابله الاستدلال.

[32] **Organism**

الأكثر تعقيداً من بينها جميعاً: الإنسان من حيث الأصل والتطور والوراثة، من بين تكوين الطبيعة الشاملة.

إنها فكرة عظيمة وفيها بطولة حقة ... وما كان في وسعك أن تأمل أن تكفي حياتك لمثل هذا المشروع، ولكن السير قدما في هذا المشروع أجدى بكثير من إنجاز أي مشروع غيره، وعلى غرار اخلوس في الإلياذة اخترت بين فوثيا Pythia[٣٣] والخلود.

ولو كنت ولدت إغريقياً أو حتى إيطالياً ... لكان مشكلك أبسط من ذلك بكثير، وربما كانت لا ضرورة له إطلاقا ولكنت عندئذ، حتى من أول نظرة للأشياء، أدركت شكلها ونواميسها والعظمة كانت تنشأ فيك وتتصاحب مع أول تجاربك، ولكن بما أنك ولدت ألمانيا وبما أن عقلك الإغريقي قد صب في هذا القالب الشمالي، فإن الاختيار الوحيد الذي كان أمامك، هو أن تصبح فناناً من أهل الشمال بذاتك أو أن تستخدم الجهد العقلي لتعوض الخيال ما أنكر عليه من تجربة واقعية، وبذلك تخلق، كما يجوز لك القول، بلاد إغريق من الداخل وبتنسيق الاستدلال[٣٤] ... وبهذا كان لديك مشكل آخر، لأنك كلما سرت من الإدراك الحسي[٣٥] إلى التصور العقلي العام، كان عليك أن تحول الصور العقلية

---

[٣٣]نبيه الوحي في دلفي Delphi

[٣٤]الاستدلال Reasoning انتقال الذهن من أمر معلوم إلى أمر مجهول.

Perception[٣٥] معرفة مباشرة للأشياء عن طريق الحواس.

إلى حدس وتغير الأفكار[36] إلى وجدان[37] بما أن الحدس والوجدان ضروريان قبل أن تستطيع العبقرية أن تنتج، هذه هي على وجه الإجمال، آرائي عن اتجاهك العقلي، وأنت نفسك خليق بأن تعرف ما إذا كنت على صواب، ولكن يكاد لا يمكن أن ينتظر منك أن تعرف (بما أن العبقرية هي أبدا أعظم شيء خفي لنفسها) التوافق التام بين غريزتك الفلسفية وأخلص نتائج العقل المفكر ... وبالطبع يختص العقل الحدسي بالفرد، دون سواه، والعقل المفكر بالنوع، ولكن إذا كان العقل الحدسي يملك العبقرية ويبحث بالتجربة عن صفة المطلق فإنه، في الحق، سيصل إلى أفراد، ومع هذه الأفراد ستستبين صفات النوع، وإذا كان العقل المفكر يملك العبقرية ولا تغيب عنه التجربة عندما يتسامى عليها، فإنه لا يصل إلى شيء غير الأنواع، ولكن مع إمكانية الحياة وبرابطة متينة وإلى أشياء واقعية.

ولكني ألحظ أني أكتب موضوعاً لا خطاباً ...

وحتى إذا لم يواتك أن تتعرف نفسك في المرآة فإني ألتمس منك، جاداً، ألا تتحاشاها لهذا السبب، وبعد ذلك يأتي موضوع ولهم ما يستر **Wilhelm Meister** وهل يستطيع الظهور في دي هورن **Die Horen** إن خلاني وزوجي يرجون أن تتعطف وتذكرهم وإني أظل بكل احترام خادمك المطيع– فر. شلو **Fr. Schiller**.

---

[36] الفكر **Thought**–هي موضوع التفكير.

[37] وجد أن **Feeling**– كل إحساس أولي باللذة والألم.

هذا الخطاب كتبه فيلسوف ورجل دنيا، ويبقى الشاعر متوارياً عن النظر، وعلى ذلك يبقى إدراك الموضوع من وجهته الشاعرية المحضة في الخلف، وهذه هي المرة الأولى، بالتأكيد، التي رؤى فيها تقدم جوته من خلال نظرات عبقري، ومن النادر أن جوته استطاع، قبل أو بعد ذلك، أن يقرأ مثل هذه الشروح العميقة عن نفسه، ولكن ما يصوره شلر هنا هي الطرق المنسقة وليست حركات الرجل، وفي خلال الثماني سنوات التالية إلى أن وافاه أجله– على الرغم من اتصاله الوثيق بجوته– لن يحاول أبداً أن يضع رسماً مجملا لخليقة جوته، وهو ما يدعو إلى العجب من عالم النفس هذا، ويمكن تفسيره فقط بالطريقة العقلية الخالصة التي يعالج بها شلر علاقتهما.

ولم يحاول شاعر منهما في مؤلفاته، مطلقاً، أن يصور الآخر، ولكن هنا أيضاً يكون إعمال الفكر للوصول إلى عقل جوته لا للشعور به، وفي هذا العهد الذي تسود فيه جفوة وصرامة مذهب كانت، يظهر أن شلر نجى إلى جانب، عن عمد جميع المناهج[٣٨] النفسية والتجريبية[٣٩] وفسر فكرة عقل جوته حتى لو أن استنتاجا آخر كان معروفاً له.

وكانت طريقة جوته، في الواقع تنزع إلى الأصل والتطور والوراثة[٤٠] وأصل الحياة، تناسل كائنات حية فقط[٤١]، وعلاوة على هذا فإنها لم تسر

---

[٣٨] المنهج **Method**–الخطوات التي تتبع للوصول إلى نتيجة.

[٣٩] التجريبي **Emperical**– المذهب الذي يقيم المعرفة على التجربة وحدها.

[٤٠] **Genetic**

[٤١] **Biogenesis**

من النبات إلى الإنسان ولكن من الإنسان إلى النبات، وكشاعر، كان جوته يفتقر إلى ثقافة الجنوب الشاملة المتلائمة وكان يبحث عن الإغريق في إيطاليا ولكن مع هذا، لم يكن مرجع ذلك إلى قوميته، وإنما مجرد منهج لحل مشاكله الشخصية، وغذا كان في النهاية قد سار من الإدراك الحسي إلى المعنويات فإنه لم يكن يشعر بضرورة تحويل أفكاره إلى وجدان ولكنه عمل على تنظيم مذهبه[٤٢] بحيث يقوم حاجز من الزجاج بينه وبين إدراكه الحسي، وكل قسم يقع على مرأى من القسم الآخر، ولكن كلا منهما منعزل في مكانه، وكان من تأثير شلر الخاص أنه أحياناً كان يحبذ نوعاً من الارتباط بين المجالين.

ومن الجهة الأخرى، فإن الفن السياسي الذي يخفي به شلر دوافعه في هذا الخطاب يصيب نجاحاً تاماً، يا له من إحساس رقيق يعامل به جوته، كعبقري ساذج يجهل نفسه، ومع هذا يدرك أن جوته يعرف كل شيء عن نفسه! .. وفي الوقت نفسه يا لها من كبرياء ينحى بها جوته عن الفلسفة وهي نطاقه الخاص ... يا لها من جسارة أن يخبره أن جهوده لا يمكن أن يقدر لها النجاح، وأن الجهود نفسها، لو كان مسقط رأسه الجنوب، لكانت تفيض عن الحاجة! .. و يا له من دهاء أن يقدم نفسه حتى حين تكون مرآته خادعة! .. لأن هذا الخطاب هو عرض للخدمة، هائل، حنية إلى من هو

[٤٢] المذهبSystem– مجموعة من الآراء والنظريات العلمية والفلسفية ارتبطت بعضها ببعض ارتباطا يجعلها وحده منسقة.

أعلى قدراً يعترف بذلك، وهذا صدق، يظهر التأدب، ولكن بإضافة هامة، وهي أن عقل شلر كان يطابق مطابقة تامة غريزة جوته، وأن جوته، كان عبقري الحدس وشلر عبقري التفكير، وأنه لهذا السبب لم يكن يوجد فرد آخر على شاكلة شلر، يصلح بالفطرة لأن يفهم جوته.

ولقد كتب جوته خطابات قليلة على هذا النمط، إلى دوقة، وكما أنه كان دائماً يختتم مثل هذه القوائم بالمطالب والالتماسات بنغمة الخضوع الاختياري فإن شلر يغلق في النهاية باب هذه الغرفة المقدسة السرية بالتعبير الفجائي الفاتر "بكل احترام– خادمكم المطيع".

ولكن جوته يعيد فتحه في الحال، ولم يحدث خلال العشرين سنة الماضية– إذا كان حدث على الإطلاق– أنه أمسك بين يديه مثل هذا الخطاب، إنه يشعر أنه يرى هنا وهو في وضعه المنظور[٤٣] ويجري عليه الفحص، من وجهة التاريخ وحتى من وجهة البطولة! ... واعترافا بالجميل قام بأمر لم يكن من أطواره في أي وقت في حياته بتاتا، ولكنه كان شيئا لا يتوقع صدوره عنه، بصفة خاصة، في الوقت الحاضر، وهو يكبر شلر بعشرة أعوام، فنجد أنه هو البادئ بكلمة صداقة، وهو يقابل ما يتقدم به شلر من خطوات بطريقة أشبه بطريقة امرأة جميلة ممتازة توافق دون اللجوء إلى تعبيرات معادلة في حرارتها، إنه أعجب خطاب لوضع ميثاق! ..

"لذكرى ميلادي"، إنها الخامسة والأربعون، "ما كان يمكن أن

---

[٤٣] Perspective

تصلني هدية أكثر مجلبة للسرور من خطابك الذي تهدي إلى في سخاء خلاصة وجوهر وجودي وتشجعني بعطفك على استخدام مواردي في نشاط وعناية أعظم"، وهو أيضا يعتبر محادثتهما نقطة تحول في حياته، ويظهر الآن "كأننا بعد هذا الاجتماع، سنسير من الآن فصاعداً، في معارِج التقدم، ولقد كنت دائماً أقدر تقديراً عالياً الأمانة والجد الرفيع اللذين يتجليان في كل شيء كتبته أو اضطلعت به، والآن يحدوني الأمل أنك بذاتك ستحيطني علماً بتقدمك العقلي وخاصة في الأعوام الأخيرة .. وكل شيء في داخلي ومن حولي سأكشف عنه، عن طيب خاطر، لأني أشعر شعوراً مرهفاً بأن طموحي يتجاوز إلى مدى بعيد حد إمكانيات البشر، فإن الرغبة تلح بي لأستعرض أمامك أموراً عديدة ليس كمجرد وسيلة لصيانتها، ولكن أيضا كطريقة لزيادة حيويتها، وسترى سريعاً لنفسك عظيم النفع الذي يمكن أن يسديه إلى عطفك، بما أنك عند تعارف أكثر قربا بي، ستحس نوعاً من الظلام والتأرجح يجتاحاني ولا قبل لي على السيطرة عليهما مهما كان مبلغ إدراكي ذلك ... أرجو أن أنفق وقتاً معك، وعندئذ يتاج لنا أن نتحادث عن أشياء كثيرة معاً، وكانت الرواية قد سلمت إلى ناشر.

"الوداع واذكرني بين صحبك – جوته".

إنه يجعل من الجلي أن رفيقه في هذا الارتباط العقلي الذي يتطلعان الآن إليه، يدعى قلبياً للحاق به للسهر على شئون الثروات التي

لديه، بينما شلر من جانبه، لا حاجة له بأن يقدم أي شيء غير ما اشتهر به من أمانة وجد، وبهما كان دائماً موضع تقدير، أما ما كان عليه شلر نفسه فيظهر أن جوته لديه أقل فكرة عنه لأنه وإن كانت مؤلفاته في متناول اليد ودان لها ذيوع الصيت فإن الدعوة تقدم إليه هنا في مودة ليقدم إلى صديقه الجديد موجزاً عن نفسه، ولا دخل لموضوع المساواة.

ومع هذا فإن شلر يشعر بأنه الظافر، وهذه هي الحقيقة الحال، من حيث أنه استولى على ثقة جوته عنوة، ويحس أنه مع الزمن سيوقظ فيه اهتماما أعمق، ولقد أصبح الآن أكثر وثوقاً من نفسه، وهو يتناول ذكر مدرجة حياتهما المشتركة ويستفيض فيه إلى حد أنه يأمل: إننا سنقطع ما يتبقى من طريقنا معاً، بما فيه أعظم مغنم، لأن أولئك الذين يسافرون في رحلة طويلة وينضمون بعضهم إلى البعض الآخر، آخر ما ينضمون، يكون لديهم أعظم ما يمكن أن يتبادلونه، وبهذا يبدأ بأكثر من صداقة عمر – وسيكون هذا الرباط بحيث يجد فيها جوته أفضل نفع له حتى في ختام شوطه.

ويكتب شلر الآن في حماس، وقد قلل كثيراً من نزعته الفلسفية بالموازنة بضوء خطابه الأول الفاتر، وهو يتحدث عن نفسه في نبرات تشبه كثيراً تلك التي تكون لثم مركيزدي بوزا **marquis de Posa** وكلمة أمعن في شهامته، في وضع نفسه إلى الخلف، كلما كان أكثر نبلا في الإفصاح عن ذات نفسه، "أنني مكره بأن أحاول جعل شيء قليل يقطع مسافة طويلة وعند تعرف أكثر قرباً، وتكون قد علمت بما لدي من

رصيد ضئيل مما يطلق عليه "المعرفة المكتسبة" فربما ستجد أني أحياناً أصبت نجاحا في هذا ... إن لديك مملكة تتولى حكمها ولكن ليس لي إلا أسرة عديدة الأفراد من الأفكار ...

إن تفكيري[٤٤] في الواقع يعمل بطريقة أكثر ما تكون رمزية، ولهذا فإني كالهجين، أقع وسطاً بين الفكرة والإدراك الحسي ... وعادة عندما كان يجب أن أكون الفيلسوف، كان يدركني الشاعر وعندما كنت أرجع إلى الشعر، كان يطغى الفيلسوف في ... ولكن لسوء الطالع، بمجرد أن بدأت أضع تقديراً لقواتي الخلقية والإفادة منها على الوجه اللائق يهددني المرض جسمياً ... ولكن سأفعل ما أستطيع وإذا انهار البنيان في النهاية فربما أكون قد أنقذت من الضرام كل ما يستحق الإنقاذ ... إني أضع هذه الاعترافات أمامك بكل صراحة ويراودني الأمل في أنها ستجد عندك حظوة.

لقد بلغ الكمال في أن الشاعر كان يدركه، عندما كان مرماه أن يكون الفيلسوف، لقد صيغ كل هذا في حماس وإيقاع[٤٥]. إنا نتبين في هذا الخطاب رقم[٤٦] قلم يسير في سرعة بينما الخطاب الأول وضعت فكرته وصيغ في عناية!.

---

[٤٤] التفكير Understanding – يطلق بمعناه العام على ما يقابل الوجدان والنزوع، وبمعناه الخاص على العقل من حيث يدرك موضوعه إدراكا أعلى من الإدراك الحسي والتخيل والتذكر.

[٤٥] Rythm

[٤٦] الرقم– الكتابة.

وفي شغف، كما كان مطلب الشاب، يتقبل جوته هذه الأسطر وفي الحال يدعوه إلى وايمر **Weimer** وفي قبوله يلتمس شلر، فقط، إعفاءه لمرضه، ومع هذا فلكي يضع قناعاً على كبريائه القديم مرة أخرى فإنه يؤكد لكورنر **Korner** أنه لا يواتيه أن يرفض بطريقة جد لائقة "دعوة جوته الملحة بما أنه سيكون لاتصالهما نتائج حاسمة للطرفين ويكتب إلى زوجه أنه سمع من جميع الجهات "عن مقدار سرور جوته بتعارفه بي!" وفي فتور أكثر من ذلك بكثير، يخبر جوته صديقه ماير **Meyer** أن شلر كان يبعث بروح جديدة في أفكاره الراكدة وحتى بعد ذلك بثلاثة شهور يكتب في اعتدال قائلا إنه ذاهب في هذه الفرصة مع شلر وأفراد من أسرة همبولدس **Humboldts** ويظهر أننا سنسافر معاً فترة من الزمن.

وزيارة شلر لجوته هذه، التي استغرقت أربعة عشر يوما تشبه إحصاء بجميع الممتلكات التي يقدمها كل من الطرفين المتعاقدين إلى المنزل المشترك وترسم الآن خطوط منهاج، إنهما يجمعان الرأي على تراسل فني، لنشره بعد ذلك، "نعلم الآن، يا صديقي الصدوق من مؤتمرنا الذي دام أسبوعين، أننا على اتفاق فيما يتصل بالمبادئ الأساسية وان مجالي وجدانياتنا وأفكارنا ومناحي نشاطنا يتوافقان جزئيا ويتلامسان جزئيا، ومن هذا سيستمد كل منا نفعاً عظيما" والآن يبدأ التراسل ويبدأ تعاونهما في دي هورن **Die Horen**.

ويبدأ حزب جديد في ألمانيا.

وكان على هذا التحالف أن يدوم إحدى عشرة سنة، ويتعرض لليسير من الصعود والهبوط ولكن دون أن يتقدم إلى ما بعد مرحلته الأولى وفي وقت نشأته كان يبلغ الحليفان الخامسة والأربعين، والخامسة والثلاثين من العمر، ومع هذا فإن الرجل الأصغر سناً شاحب اللون وقد أنحله المرض بينما الأكبر سناً ذو بشرة سمراء ومتين البنيان، إن شلر أفرع طولا ونحيل وضامر وجوته أعظم عرضاً ومكتنز العضل الآن، وقد بدأ يسير إلى البدانة، وعينا شلر الوادعتان الرطبتان تغوران في وجه بيضي الشكل وجبهته شاحبة تتسم بالغوطية **Gothic**، تؤثر في الروع، تظهر أكثر اتساعا منها ارتفاعا، والشفتان حائلتا اللون، الحساستان تشبهان شفتي كاهن، وأنفه القصير البارز المقوس جسور يناصب العداء وخطوطه تظهر أنها تعبر في أعظم قوة عن عظمة الرأس، أما رأس جوته فتقرب أن تكون مربعة وفوق عظام عارضتيه[٤٧] تتقبب جبهته وهي أكثر ارتفاعا منها اتساعاً وعلى الرغم من حنيته فإن الأنف يكاد يكون كلاسيكياً بالموازنة إلى أنف شلر، والشفتان ضيقتان متحفظتان ولكن العينين يسطعان على العالم في غموض وانهماك، وكتابة شلر يغشاها اضطراب وفيها اختراع وتتدفق على الصفحة في موجات واسعة سريعة، أما جوته فإنه، في دهاء، يحول خصاله إلى خصال تكون للنوع.

وشلر المستشار الشاب ورجل البلاط يوجه أعظم عناية إلى ما

---

[٤٧] صفحتا الخد.

يكتسبه ويجلب أغلى المواد ثمناً، لملابسه المسائية ويحتفظ ببيت كبير وفي سن الثامنة والثلاثين يقتني مركبة وخيولا وهو ما لا يحصل عليه جوته إلا بعد أم يشرف على الخمسين، وفي أول سنة من زواجه، لا يستطيع السفر مع زوجته حتى ليبزج **Leipzig** دون خدم[٤٨] من الجنسين وهو لامع في المحفل[٤٩]. وفي كسوة البلاط الرسمية وما على الكتفين من شريط الزينة، يمكن أن تحسبه خطأ مدام دي ستيل **Madame de Stael** ضابطاً عالي الرتبة، أما جوته فإنه يلبس في بساطة عظيمة وقد تخلى عن الشعر المستعار والغدائر، ولا يغشى البلاط إلا لماماً ويندر ظهوره في المحافل وكوزير، يعيش كواحد من غمار المواطنين، وعن عمد يتخذ سمتاً رسمياً جافاً ويقل في حديثه، وشلر وقد اعتاد أن يكتسب العلم من الكتب أكثر مما يكتسبه من الناس ولم يألف العيش في الخلاء وقد ألم به السل وفي خوف مقيم من نوباته، يمضي معظم وقته في عقر داره ولا يقوم أبدا بتمرينات بدنية ويجلس أسابيع بطولها في غرفة موصده عاكفاً على التدخين ومعاطاة النشوق.

ولما كان في العادة يأرق ليلا، فإنه لا يستطيع وضع خطط محددة لليوم التالي وأحياناً لا يتناول وجبة غذائية حتى تحل الساعة الثامنة، وفي الأيام السيئة يكون حتما عليه أن يدعم قواه بالخمر، ويجيد الكتابة عندما

---

[٤٨] الخادم واحد خدم غلاما كان أو جارية.

[٤٩] محفل القوم مجتمعهم.

يكون مقياس الضغط منخفضاً، ويعتمد جوته على مقياس ضغط (بارومتر) مرتفع ويأوي إلى فراشه مبكراً وينهض مبكراً، ويكتب فقط في الصباح وينفق أسابيع بطولها في منزله الضيق ويمارس الركوب والتزحلق على الجليد، وهو في أتم عافية بين الأربعين والخمسين من عمره ... ونوع الهواء الذي يأتي بالنفع إلى شلر يدعو جوته سما وذات يوم، عندما يحس رائحة تفاح فاسد تفوح من مكتب صديقه، يشعر بدوار ويسرع إلى فتح النوافذ.

وشلر الذي كثيراً ما توقعه وفرة مشاريعه في حيره، يمنعه المرض منعاً باتاً عن العمل وجوته ينهض بمهامه وواجباته في سرعة حتى يخصص نفسه للدرس والكتابة، وحياة شلر الخارجية تزيدها شدة الفوضى، وحياة جوته يجعلها أكثر يسراً الحرص على الدقة، ومع هذا فإن الحال كانت تستدعي من شلر، أكثر مما يفرض على جوته، أن يفرق بين العمل والفن، لأن شلر كان لديه على الدوام مشاريع قائمة وعلى هذا كان لزاماً عليه أن يفصل في عناية، فنه عن حياته.

وفي الوقت الذي ضم فيه شلر قواته إلى قوات جوته– وهذا هو الوقت الذي ينطبق عليه نقيض دعوانا[٥٠]– يكون شلر في خطر من الصحافة، وكما يقول جوته، إنه يصلح إلى حد رائع لأن يكون محرراً، ولما كان رجل عبقرية، مهذباً، ويكلف بالسياسة والفن الجمالي، فإن شلر كان يلتف حوله عدد من رجال الأعمال وفي رغبته لأن يصل إلى القوة

---

[٥٠] نقيض الدعوى **antithesis** قضية تعارض دعوى معينه (مقابل دعوى **These**)

والمال كان يمكن أن يتخذ هذا النهج لولا اعتلال صحته ولولا جوته، ولقد وقع عليه اختيار رفاق شبابه ليكون رجل سياسة ويقول جوته أن عظمته على مائدة الشاي تعادل العظمة التي يمكن أن يتجلى بها في مجلس نيابي، قومي، إنه يشغف بالعمل والشرح المستفيض والدسيسة، ولك شيء من هذا القبيل مما يوجد في مسرحياته يلائمه أكثر مما يلائم جوته وهو أكثر ما يكون من مستلزماته كلما زاد مقداره وهو يدرك تماما كيف يحصل على كتاب مجيدين لصحيفته وكيف يقوم بالدعاية ويرتاح إلى النهوض بذلك، وعندما توشك دي هورن **Die Horen** أن تزهق بعد ثلاثة أعوام، يقترح العمل على إلغائها بكتابة طائفة من المقالات المتطرفة حتر يمكن أن يظهر أن الصحيفة قد نسفت، عوضاً عن أن تقبر في صمت، ومع هذا، فإن قلقه الدائم وتسرعه، سرعان ما يحملانه على تغيير ما وضعه من تدابير مع الناشرين والصحف حتى أن جوته لا يعتمد عليه لينجز أي شيء إلى النهاية، بما أنه (كما يكتب إلى ماير**Meyer**) يجب على المرء ألا يتوقع معاونة شلر لأية غاية محددة، ومع وجود مشروعات عديدة ينافس بعضها البعض الآخر، فإن نزعة التسرع في شلر منعته أخيراً من الوصول إلى أية نتائج عملية مهما كان مبلغ تحويله لمثاليته العقلية إلى نظيرتها التجارية.

أما مواهب جوته فإنها تقع في ناحية أخرى جد مغايرة، "عندما أرقب الطبيعة، فإني واقعي أسير على صراط مستقيم وعلى ذلك فعندما

تستعرض الأشياء نفسها علي، أعجز عن الرغبة في تطبيقها أو تعديلها والفارق الوحيد بين الأشياء هو عما إذا كانت تسترعي اهتمامي، أو لا تسترعيه، ومن الجهة الأخرى، ففي كل ضرب من ضروب النشاط، يمكن أن أدعو نفسي المثالي الكامل: إنني لا أبحث إطلاقا في كنه الأشياء ولكن ألح أن يكون كل شيء متلائما مع أفكاري.

ومع هذا فإن روح شلر المغامرة لا يحفزها فقط الدافع الخارجي للكسب، ولكن يغذيها أيضاً من الداخل إرادته للوصول إلى القوة، ويظهر أن جوته كان يفكر في هذا في شيخوخته عندما يقول إلى إكرمان Eckermann" إن شلر الذي كان يتفوق على كثيراً في الأرستقراطية ولكن كان يزن كلماته في عناية أكثر كثيراً مما كنت أفعل، كان من سعود طالعه أنه أعتبر صديق الشعب الخاص".

وإذا كان شلر قد هتف بالحرية في شبابه، فإنه كان يعني، قبل كل شيء، حريته هو، وفي الإعلان عن روايته "اللصوص" وفي كلمة التقديم وهو في السنة الثانية والعشرين من عمره كان يلح أن مسرحيته لم تكن انقلابية سياسياً أو خلقياً، وبعد ذلك بخمسة عشر عاماً عندما يتسلم حقوق المواطن في الجمهورية الفرنسية، كان مرجع اهتمامه فقط لهذه المسألة هو ما يمكن أن تأتي به من نفع لابنه.

وفيما عدا خدمه، لم يكن له فعلا أي مرؤوسين، ولكن عندما يكون له شأن بالممثلين الذين كانوا الوسطاء بين عمله والجمهور فإنه يقرر:

"يوجد فقط نوع واحد من العلاقة بهم، صيغة الأمر الوجيزة التي ليس علي أن ألتزمها وبهذا الختام، يظهر أنه كان ينصح إلى جوته بأن يتخذ خططا أكثر صرامة ومع هذا فإن جوته يستمر على القيام بالعمل بصفة استشارية، فيما يتصل بشئون الفنانين، إنه هنا أيضاً على طرف نقيض مع جوته الذي كان يريد أن يشيع في جميع ألوان نشاطه العديدة نفس الهمة والنظام ولكن لم تكن له رغبة في السيطرة والتحكم، وعندما تظهر عليه النزعة الأرستقراطية فإنه في الواقع حريص على الدقة، ومن الوجهة الأخرى عندما يحاول جوته في شيخوخته تحليل شلر، فإنه يقول عنه: "مهما كان الأمر الذي يفكر فيه، فيجب أن يكون، سواء أكان يطابق الواقع أو لا يطابقه".

وعندما يكتب شلر، تدور أفكاره حول العالم والخلف، وفي غمرة النقد والتغيظ والمنافسة والثرثرة والأحزاب يقوم بمراسلات على نطاق واسع، ول أن النجاح حليفه باستمرار كواضع مسرحيات من نوع الفاجعة، فقد كان يزعجه كل فشل صحفي ثم يتحدث كيف يفور دمه غضباً عندما تتعرض صحيفته "موزن الماناكلمزيج من المديح واللوم، وجوته الذي كف عن محاولة إرضاء الألمان منذ عشرين سنة خلت يجيب مبتسما بالفكرة الناضجة: إذا لم يكن المرء راضياً أن يبذر بذوره، خبط عشواء، مثل ذلك الزارع غير الحكيم الذي جاء ذكره في الإنجيل، دون أن يسأل أين أو كيف تنبت فخير له ألا يشغل باله بالجمهور.

وكذلك في حياته الغرامية كانت رغبة شلر في السيطرة، على نقيض تام من إخلاص جوته الذي يتسم بأنوثة أعظم، وبمجرد أن يبدأ شلر في قطع علاقته بمحظيته، يكون قد بدأ في تحذير صديقته الحديثة منها وعندما تصبح هذه في دورها عروسه فإنه يحاول أن يجعلها من كل ناحية تلميذته، ولا يوجد تباين في علاقاته مع السيدة فون كالب **Frau Von Kalb** وزوجته شارلوت **Charlotte** وأخت زوجته المطلقة، كارولين **Caroline** وعند زواجه يأخذ كارولين إلى بيته وعندما يتزوج مرة أخرى يجعلها تستقر في وايمر **Weimar** لأنه هو نفسه رحل إلى هناك، ويعيش في وفاق تام مع زوجته ويخاطبها دائماً في رسائله إليها بيا "فتاتي العزيزة الصغيرة" وشلر شهوان متعال في الحل ولكن جوته يسلم نفسه بكل جوارحه، ولهذا السبب فإنه لا يحب غير امرأة واحدة في وقت بعينه ولم يكن له، حرفيا أكثر من عشيقتين معاً.

ولكن إلى المرأة الوحدة يتحدث في أنغام تجعل أرملة شلر، عندما تقرأ خطابات جوته إلى السيدة فون أشتين **Frau Von Stein** يأخذ منها العرب لما فيها من عاطفة عنيفة وتعترف، أن شلر لم يحب أبداً على شاكلة هذا، "لأنه لم يكن يستطيع الحب عن عاطفة خالصة".

وعلى هذا يكون شلر الشاعر الأعنف عاطفة وفي خلال الثلاث سنوات التي تقع مباشرة قيل اتحادها كان يخصص كل وقته تقريباً للدراسات التاريخية ولفلسفة كانت **Kant**، ومن كانت، يستمد حبه

للجمال الذي يكون، بدوره ذا أثر حاسم على عمله، ولكن بعد ذلك، عندما يرسم له جوته الخطوط العريضة لنظريته عن الألوان في درجات التفكير فإن شلر يرتبك وحسب: "في مثل هذا الشكل الصارم يجب أن يظهر موضوع التجربة هذا، دائما، كتلة لا يمكن التسيطر عليها وفي رغبتي الحقة في أن أحيط بها في صيغ التصورات الفلسفية، يجب أن أشعر بعدم كفايتي التجريبية"، إنه من المستحيل أن تقسر فكرة جوتيه على اتخاذ شكل شلري! ... ويجيب جوته في هزة مؤدبة بكتفيه "إني أعتقد شخصياً أن كتلة الظواهر[٥١]التجريبية التي تنتظم مثل هذا النطاق الواسع، لا يمكن أن تضع نفسها في يسر وحدة عقلية[٥٢]".

لأنه ولو أن شلر أوعز إلى جوته بقراءة كانت ولم يكن قد وجه إلى مؤلفاته حتى الآن إلا بالنذر من الانتباه على الرغم من نصائح جاكوبي Jacobi فإنه لم يتزحزح عن موقفه إلا قليلا، فهو ليس في حاجة إلى الفلسفة، كشلر، لينقذ نفسه من الفوضى أو ليتعرف نفسه ولكن "لأبتعد عن نفسي وهو ما استطيع تحقيقه في أكبر يسر وذلك لأن طبيعتي كنقاط الزئبق المنعزلة، تتحد مرة أخرى، في سرعة وسهولة" وهل من السخف أو من الرائع أن نقرأ ما سطرته يد جوته من أنه يجب على المرء

---

[٥١] الظاهرة **phenomenon**– واقعة يمكن ملاحظتها.

Rational[٥٢] والذهب العقلي **Rationalism** يقابل المذهب التجريبي ويقول بمبادئ فطرية في النفس وقوانين خاصة بالعقل ويقيم المعرفة على العقل وحده.

أن يقرأ علم الإنسان[53] لكانت في وقت الربيع فقط عندما تهيئ الزهور السكينة وراحة البال "ولقد قرأته والأطفال يلعبون من حوالي" وعندما يكتب، يتحاشى جوته الفلسفة تماما ويؤكد أنها تعوق شعره "بما أني لا أستطيع أبداً الاحتفاظ باتجاه التفكير الخالص ولكن يجب أن التمس إدراكا حسياً في كل جملة وبهذا أحلق في الحال في الطبيعة"، وفي مثل هذه الأوقات، أيضاً يتحاشى كذلك كثرة الأحاديث مع شلنج **Schelling**[54] وهو الأقرب إليه كمفكر، وعندما ينتج جوته، فإنه لا يريد أن يفكر "بما أني أقدر على التفكير فقط، على قدر ما أنتج".

والإدراك الحسي هو على الدوام الشيء الخطير بالنسبة له، حتى أنه ليستقر رأيه أن في وسعه الاستغناء عن حواسه الأخرى، وفي دراسته لسلليني **Cellini**[55] يعلن جوته أنه يمكننا الحصول على فكرة أفضل عن القرن الذي عاش فيه سلليني عندما نمعن النظر من خلال عيني "هذا الفرد المرتبك أكثر مما نجد في شروح أعظم المؤرخين صفاء قريحة"، وهو يوجه التقريع إلى عالم في وظائف الأعضاء ويقول إن عالجته "عضو الروح **The Organ of the Soul**".

ويجب أن يكون عنوانها "النهايات المخية للأعصاب **The**

---

[53] **Anthropology**– العلم الذي يبحث في صفات وطبائع السلالات الإنسانية.

[54] فيلسوف ألماني واضع مذهب شهير عن المثالية الذاتية (١٧٧٥ – ١٨٥٤)

[55] حفار شهير وصانع تماثيل وصائغ إيطالي ولد في فلورنسا (١٥٠٠ – ١٥٧١).

لأن فكرة عن أشياء أجريت **Cerebral Termini of the Nerves** عليها التجربة ليست إلا عضواً يمكن بواسطته أن نتعرف كنهها، وسرعان ما يضيق ضيقاً شديداً بالحماس العارم لكانت، السائد في ينا **Jena** وفي ألمانيا، إنه يريد العودة إلى الفن ويبعد عن هذه البيئة حيث يكون ميل كل شيء إلى التفكير، وحتى في شيخوخته يأسف لأن شلر حمل نفسه كل هذا العناء بالفلسفة ويلخص جوته كل وجوه التناقض في المنحى، بينه وبين صديقه في جملة واحدة ملهمة، تزهر وكأنه بها فجأة كصخرة ضلت سبيلها عبر السهول العشبية في يومياته: "إن التجربة هي على الدوام تقريباً التقليد الهازل للفكرة".

ومثل هذه الاختلافات الأساسية تفصح عن نفسها في سهولة كفروق في مؤلفاتهما، والمشكل يجس فقط في تصورات المسائل العاطفية والفطرية التي ميز بها شلر في جودة وافرة، منهجيهما في الكتابة، وجوته نفسه، في شيخوخته، يستنتج طبيعة موهبة شلر العقلية من جسمه المتكبر وعينيه الوداعتين، ولقد قال إن شلر يأخذ بزمام موضوع عظيم في إقدام ثم يقبله على كافة وجوهه "كان يرى الموضوع، كما هو، من الظاهر فقط أما التطور الصامت من الداخل، فلم يكن يحفل به".

وفي كلمات جوته هذه، تعريف دقيق لعظمة شلر ونواحي قصوره وانحرافه عن منهج جوته، وشلر يبحث عن المواد أما جوته فإنه يجدها، وشلر يتخير المواد أما جوته فإنه يحييها: وإذا كان في شلر قصص رمزي فإن كل شيء في جوته يصبح رمزيا، وعلى هذا فإن تفكير شلر– أبعد ما

يكون مناصباً شعره العداء (–) يأتي عليه بالنفع بصفة إيجابية ... ويجب عليه أن يحيط بهما معاً، ويفسر أنه فقط بحركة موازية يمكنه أن يحتفظ "بكلا العنصرين المتنافرين في نوع من الامتزاج". وكما يشكو هو نفسه، يجب على شلر أن يعتمد في عمله، على أن يتواجد معا الحلم والفكرة، لاستمداده إلهامه، وثالث وأعظم مقومات الشاعر قوة الإدراك الحسي والحياة والاعتماد على الاحتمالات والطبيعة– يظهر أنه ظلت بعيدة عنه، ويدهش المرء عندما يسمعه، مع التنوع العظيم في شكول نشاطه، يشكو من أنه ليست لديه فرصة لدراسة الناس.

وكلما ازداد تعمقاً في الإحساس بما له من خصائص، كلما ازداد تعمقاً نقائضها في صديقه الذي يرقبه دائماً في استطلاع، كشيء في الطبيعة، "بينما تعكف على العمل، فإنك في الواقع في ظلام والنور يوجد داخلك، وعندما تشرع في إمعان الفكر فإن النور الداخلي ينبعث منك ويضيء الأشياء لك ولغيرك، ولدي يتمازج هذان المنهجان ولا يكون في هذا نفع عظيم للمسألة التي أعالجها، وقد وضع هنا تعريفاً للغموض والبرء اللذين ينصح بهما **Aurelie** إلى ولهلم ما يستر **Wilhelm Meister** الشاب، بأن يرعاهما كفنان واللذين حتى جوته الذي أخذ منه الهرم كان قمنا[٥٦] على البقاء عليهما، لأنه مع كل تحليله الذاتي، لا يستطيع جوته أن يتعرف شيئاً غير بنيانه ولكن لا قبل له أبداً على أن ينبئ، على شاكلة شلر، مقدماً، بما سينتجه بما أن

[٥٦] القمن، الخليق.

"هذه القوة الطبيعية المنظمة" لا يمكن أن يؤخذ بزمامها، وعلى هذا فإن هاتفاً داخلياً يجبره على أن يلتزم الصمت فيما يتعلق بمشاريعه وفي صمت يجري اختباراً، بملحمته الجديدة، على نتائج النظرية التي وضعاها معاً بالاشتراك، حتى عندما تقدمت به السنون كثيراً، يأسف لأنه مرة كشف عن مشروع لصحبة ثم تخلى عنه نزولا على نصيحتهم، أما شلر، من الجهة الأخرى، فإنه كان يتناقش في مسرحياته الأخيرة مع جوته مشهداً بعد مشهد.

ومن بين هذين الشاعرين، كان شلر، بالطبع، يعمل في سرعة أعظم، إلى حد بعيد، وتركيزه، كما يظهر، يدعو إلى الدهش ومنهج كتابته عنيف، يناصب العداء وبارز في وضوح، يشبه كثيراً أسلوبه في الركوب أو" لعب الورق[٥٧] بينما جوته يتحين الفرصة ومن ذلك الوقت يميل إلى استخدام كلمة "لعب" عندما يتحدث عن كتابته بينما في السابق كان يدعوها "عملاً" وحسب، والمفارقات في كتابتهما تنطبق على أسلوبهما في قراءة إنتاجهما بصوت مرتفع، وكان شلر يضعف تأثيره بالتلاوة في صوت عاصف، خطابي، بينما جوته كان، بشهادة الجميع، يتلو تلاوة رائعة.

ومزاج شلر وطبيعة قدرته الأدبية كان من شأنهما أن يجعلا المسرح وسيطه الطبيعي في التعبير بينما جوته لم يشعر أبداً بالطمأنينة هنا ولقد جعل شلر المسرح الأماني أوفر ثراء بحق، بثماني أو تسع مسرحيات،

---

[٥٧] **Ombre**، يكون فيها اللعب بحزمة من الجذاذات يبلغ عددها الأربعين ويشترك فيه ثلاثة نفر، اثنان ضد واحد.

إننا نضيق حتى بأهم مسرحيات جوته من نوع الفاجعة وبينما القيم الفاجعية[٥٨] الداخلية لهذه المؤلفات يتعرف إليها في بطء، فإن مسرحيات شلر لم تفقد شيئاً من تأثيرها بعد مضي قرن، إن شلريحصل على آخر مثقال من مواده المختارة وهو رابط الجأش، وقد دفع كل شخصية إلى أبعد حد في التعبير: حتى أنه يحاول أن يرفع شخصيات جوته بفرط حماسه، وعندما تمثل مسرحية جوته في وايمر يريد أن يظهر ألبا **Alba** في صمت إلى الخلف من اغمونت **Egmont** المحكوم عليه ليتطلع إليه في خيلاء وشماتة وقد انتقم منه ويظهر له أورستس **Orostes** أكثر الأمور ريبة في افينجني **Iphigenle**: بغير ربات الفن لا وجود لأورستيس والآن بما أن سبب أمره لا يتجلى للحواس، فإن أمره هذا ألم دون هدف، مغرق في الانتظام ومغرق في الاستطالة.

وجوته، من الجهة الأخرى، يتحاشى هذا اللون من التركيز، وهو يدعو أعظم التأثيرات وضوحا في ولهلم ما يستر أقل منزلة بكثير لما تحويه الرواية وفي هذا يظهر أمام نفسه أشبه بشخص يعبث بقوائم عظيمة من الأرقام لغرض متعمد هو "خسارة المجموع الكلي، لنزعة عارضة" وجتى للمسرح فإنه يكتب مشاهد أورفاوست **Urfaust** النثرية شعرا حتى يمكن الإفصاح عن الفكرة وكأنها تتسرب من خلال شبكة سلكية وبذلك يحد من التأثير الهائل، وتزداد روح الفكاهة فيه.

---

[٥٨] الدرامية **Dramatic**

ويتصيد المواقف المسلية، وتذكرنا مناهج شلر، إلى حد ما، بروبنز **Rubens** وجوته برمبراندت **Rembrandt**.

ولكن على شاكلة الأستاذين أولئك، فإن جوته وشلر على الرغم من أنهما على طرفي تفيض، كان لهما ثم خصال مشتركة ويكون مجافياً إلى حد مفرط لمذهب جوته أن نخفي وجوه تشابههما لصالح مفارقة أكثر جلاء بما أن وجوه التشابه هذه كانت لازمة لاتحادهما المستمر.

والنشأة والقومية لهما أهمية ثانوية بالنسبة لكلا الرجلين، كعاملين خالقين، وسجلات حداثة جوته أدلة على أن طموحه جعله ينسى أباه وأمه، ويجب شلر أمه فعلا ولكنه يظل دائماً بمعزل عن والديه، ونعلم ما كان جوته يراه في القومية، وهو يكتب أيضاً لشلر: "إن الوطنية كجهد باسل شخصي قد عفا عليها الزمن كحكومة الأرستقراطية أو الكنيسة" ويقول شلر الذي كان يستمد جميع نظرياته تقريباً من الخارج- بما يكاد يكون حرفياً- وهو في سنيه الثلاثين: "إن الكلف بالوطنية هام فقط للأمم التي دالت دولتها وللشبان الدنيويين".إنه مثل أعلى ضئيل ومفتقر، لتوسم به أمة واحدة فقط". أو عن موضوع جمهوره الذي لم يكن لديه أي أسباب للرجوع عليه باللائمة.

"إن الألمان تعوزهم العواطف- وكلما كانت تافهة لا مذاق لها، كلما اتسع نطاق قبولها".

وحتى عندما يبلغ الشطوط[٥٩] بينهما حده الأقصى- عندما يكون شلر المفكر خالص التفكير، وجوته الملاحظ خالص الملاحظة- فإنه، بين حين وآخر، يبعث الواحد منهما بإشارة إلى الآخر ورواية ولهلم ما يستر وهي غريبة عن شلر بالطبيعة التي ركب عليها، تملك عليه أمره لأنه على النقيض من فلسفته التي تخلو من الروح والشعور، تشيع فيهما الحياة، ويكتب "لأن الطبيعة كلها تركيب[٦٠] خالص وكل فلسفة نقائض[٦١] .... والشاعر هو الإنسان الحق وما أفضل فيلسوف إلا رسم ما جن (كاريكاتوري) إلى جواره" – وفي نفس الوقت يبدأ في التحول عن الفلسفة، مرة أخرى ومع هذا فإن جوته يقابله في منتصف الطريق! ...

وعندما يعكف على إعداد بحث عن "علم وظائف[٦٢] النبات"، فإنه يميز أربع طبقات من علماء المواليد[٦٣] ويضع الطبقة التي تسير على التفكير فوق الطبقة التي تسير على الحدس ويرجح بأسباب ذلك إلى أنه عند البدء بفكرة، تعلن هذه الطبقة وحدة الكل من البداية ولو أنهم يلتمسون إلى حد ما، أن تكون الطبيعة بحيث تلائم فكرة سبق تصورها، وهذا القول يصدر عن جوته يشبه وقعة تقريباً، مقدمة لهجل **Hegel**.

---

[٥٩]البعد.

[٦٠]التركيب **aynthesis**– تأليف الشيء عن مكوناته البسيطة ويقابله التحليل.

[٦١]نقيض الدعوى **Anti-thesis**، سبق شرحها.

[٦٢]**Physiology**

[٦٣]**Naturalists**

ولا يرى جوته بأية حال في صديقه الذي ينزع إلى الفلسفة طبيعة مفكرة تفكيراً خالصاً بل على النقيض، يجد في شلر مزيجاً غريباً من الحدس والمعنويات، وعن موضوع عمله، يدلي شلر نفسه مرة بالاعتراف الغريب وهو أن حالة نفسية موسيقية معينة، دون موضوع محدد، تسبق كتابته، ولكن فوق هذا كله، يشبه كل من هذين الرجلين الآخر في نقاوة أغراضهما، وفي الواقع يستخدم كل منهما، في تشابه ملحوظ، والواحد مستقل عن الآخر، نفس الصيغة التي ترمز إلى جهودهما.

وفي سن الثلاثين، يكتب جوته في يومياته أنه يريد أن يوجه حياته إلى هرم وإذا كان بلوغ هذا من المستحيل فإن المحاولة ستنهض دليلا على ما بذله من جهد، ويكتب شلر وهو في نفس السن وفي نفس الألفاظ تقريباً "كل شخص يقيم لنفسه هرماً وحتى إذا لم يستطع أن يصل به إلى قمة فليس أجدي عليه من أن يحاول".

وعند هذه النقاط تتقارب حنيات طبيعتهما، ولكن في العادة، يكونان على طرفي نقيض وتحليل جوته بعد محادثتهما الأولى عندما قال إن واحداً منهما لم يكن الظافر وواحداً منهما لم يشعر بأنه مهزوم، ينطبق حتى نهاية صداقتهما، لأنه بمجرد أن نكف النظر في قوة عبقرتيهما، النسبية ونتحدث فقط في خليقتيهما ومظاهر خليقتيهما في حياتهما وأعمالهما، يجب أن يقفا يواجه الواحد منهما الآخر كخصمين يتعادلان في مساواة ويختلفان أساسيا.

وشلر يريد أن يسيطر وجوته أن ينجز عملاً، وشلر لا يتخلى عن نفسه بكليته أبدا لشخص، ولكنه دائماً يتخلى عن نفسه بكليته إلى عمله، وإخلاص جوته للحب الإنساني كامل وأحياناً ينحو هذا النحو في عمله وشلر يعكف على شعره بعاطفة تخلو من الحماس: وجوته يشكل النماذج بيد يغمرها الحب، لأن حياة شلر تأتي بعد الفن وهو يفسر السبب في أن بحثه عن المتعة كان على هذا القدر من عدم التلاؤم، والحياة عند جوته هي أصل الفن وعلى هذا يزدهر الفن كأنه من تلقاء نفسه وشلر يفكر دائماً وهو مستغرق في الشعور وجوته يدرك إدراكاً حسياً، على الدوام حتى عندما يكون مستغرقاً في التفكير،وشلر يزرع الشجرة بعد الأخرى، وجوته يبذر البذور.

لأن شلر يستطيع أن يكره بالعنف الذي يستطيع فيه أن يحب، وهو أيضاً صنو أبطاله كجوته إلا أن أبطال شلر يستنكرهم الشاعر كمصادر شر بينما أبطال جوته شخوص مركبة كأبطال الأساطير بالضبط "الطيب والخبيث كما في الطبيعة" وقدم لنا شلر الصورة الوحدة الكاملة التي وضعها لنفسه في والنشتالين **Wallenstein** ولما كان يعتقد في وجود الشر فإنه يصيغ في نفسه الطيب لا غير، ويسعى جوته إلى تسوية الصراع بين مظهري خليقته المتعادلتين في قوتهما، ويتصارع شلر بصوت عال مع العالم أما جوته فإنه يكافح في صمت مع شيطانه، وشلر يخوض المعركة أما جوته فينمو.

ولكن يوجد شيء واحد يضفي على شكل شلر ذلك اللمعان الحائل لطبقة الأكاسيد تغشي نقى البرنز بينما شكل جوته يسعى إلى الظهور بأنفاس الحياة من كتلة الرخام البيضاء، وشلر لا ينسى أبداً أن الموت بالمرصاد وحتى إذا لم نكن نعلم أن هذا حقيقة واقعة، فيمكنا أن نفترض من تتابع مؤلفاته أنها ستختم بموت مبكر، ينازع في جهد مرير، ومرة عندما تقابل ماير، صديق جوته مع شلر في الشارع، كتب أن وجه شلر كان شبيهاً بصورة المصلوب– ومع هذا، كان وقوع ذلك قبل النهاية بسنين كثيرة، وفي خطى تتطرد سرعتها، يسوقه سعير داخلي إلى الأمام، وكأنه كان يهرب وهو منبهر الأنفاس، على جواد يسابق الريح أمام "الفارس الأسود" وينظر إلى الخلف مرة كل صباح ليتبين ما إذا كان الراكب قد قطع أشواطا قليلة، دانياً منه، في الليلة السابقة وهي عملية تتكرر كل يوم على مدى السنين ولهذا أحس شلر في العشرة أعوام الأخيرة من حياته وهي أوفرها إنتاجا، وفيها توفر له كثير من الظروف المواتية، دافعاً ثابتاً لا يجيد ليكدس مأساة فوق مأساة.

وفي جد وميل للمساعدة وفي توقع للخطب ويحدوه إشفاق، يشاهد جوته هذه الفاجعة، لقد قدر له أن يحيا ثمانين سنة، والأمراض لديه، أزمات خطيرة قصار، إنه يؤمن بالحياة ويتجنب المأساة لأن الموت ليس عدواً له ومن البداية يعيش في مناجاة ودية معه، إن جوته يعتقد في التحول.

"دهمل" Dehmel

إذا وجد من وأتاه أن يغني في طريقه عبر الجحيم، فاسأله ما تريد أن تعلمه عن الفردوس، لأنه هو وحده الذي يستطيع أن يحيط علمًا بأغراض الحياة، ذاك الذي- في قنوط- أدار عينيه صوب الموت.

لا يوجد شاعر بسط يديه أبداً إلى البشرية في إيماءة أكثر طهارة، ولا يوجد شاعر جهد أبدا بمثل هذه الشدة في خلق السعادة، ولكن نعمة التي كان يعتريها الوهن ونقاوة جهوده كانت تستمد قيمتها من عتمة وعنف الصراع الداخلي.

"أن يقابل الجميع في هتاف وبذراعين منبسطين"-

كانت هذه رسالته، المتأصلة فيه وتصريف القدر الذي جرى عليه في حبه وفي كتابته، ولكن في أعماق هذا القلب ذي الرجولة التامة، كان يسكن شيطان يتحول أحياناً، دون توقع، ليشن حرباً على سيده وعلى رفاقه جميعاً.

لقد كان يحمل بين جنبيه الله والشيطان على السواء: وكثيراً ما كانت كفايته الذاتية تلغي عطفه ويحطم التحليل فرط مراحه، هذه هن الوجوه الثلاثة لصراعه الداخلي- وعمله هو انعكاسها.

ونحن الذين لم يتح لنا أن نعرفه إلا بعد أن جاوز الأربعين وجدنا من السهل أن نحبه- لأنه بمجرد إن حل ذلك الوقت- وأصبح أكثر صفاء

بمرور سنة تتلو أخرى، حتى صار خليقاً بالحب بكليته، وفي إمعان الفكر في جميع الرجال الذين صادفتهم خلال حياتي وبعضهم على نضجه مزايا تحكم فرضه على نفسه، مثل تلك النعم، كان هنا تعادل بين الكبرياء والرفق، بركان في سبات لم يخمد بأية حال، نعم، لو كان قد قدر أن يعيش خلال فترة مثالية من ضاب ثان، فإني موقن أنه كان ليخصص يوماً في سنيه الستين لخوض مغامرات جديدة، بنفس ابتسامة الشاب ونفس النظرات الثابتة الساذجة كما كان العهد به في سنية الثلاثين.

وعنده، أن حب الناس ما هو إلا استعارة– وحنينه المبرح، وقد تحقق مرة، كان أن يحب الإنسانية عن طريق امرأة.

ومن السهل أن نأتي على خليقة دهمل **Dehmel** وما وضعه من مؤلفات، بالشرح كل منهما في صيغ الأخر لأنهما في الحقيقة يكونان وحدة أو قريبا من وحدة، ولكن إذا أردنا أن نستوعب صفات هذا الرجل الصادقة وإذا أردنا أن نشعر به وكأنه تخطى الموت فيجب أن نتحاشى سجلات حياته المباشرة: خطابات بينما تبعث وهي مرموقة باليد الكثير من الأسى فإنها وهي مطبوعة تخلق إحساساً لا ينكر بأننا غرباء هنا وأننا، مهما عظم شعورنا بالقرابة والعطف، قد ارتكبنا وزر إقحام أنفسنا تقحيماً[٦٤] وطبع هذه الرسائل إبقاء على سيرة دهمل في أضعف مظهر له، وهنا تكون الغلبة لجانبه الأحلك ظلمة وهنا توجد نقائصه، وهي نقائص

[٦٤] تقحين النفس في الشيء إدخالها من غير روية.

على الرغم من تجانسها بعليا فضائله وعلى الرغم من أننا نعد ذؤابة شجرة وجذورها الذاهبة في الأرض في غموض، واحداً.

لأن دهمل كان معترفاً، وعلى غرار جوته، على التحقيق، كشف عن دلائل ما كان عليه من بؤس شخصي ولكن دهمل اقتصر على ذلك ولم يعتبره كلال، أبداً، من الاعتراف على مشهد من العالم وقد قذف بالقناع وحقره وارتدى من الكساء ما كانت تتطلبه قواعد الفن وحسب، بينما جونه سرعان ما أرجعه وقاره وبغضه للبشرية إلى العذاب الذي كان قد تخلص منه فيما سبق، بشجاعة ليث فتي، وظل دهملدائماً في طور الشباب، وربما جاوزت استطالة ذلك، الحد، لأنه في النهاية بذل حياته ثمناً لهذا، وتصادفنا فقرات أو أقوال تهوى إلى مستوى أوطى وقد تثير امتعاضا ونكون على وشك الجأر بالشكوى وإذا نحن نعثر فجأة على واحدة من تلك القصائد الاعترافية التي تشع من صفحاته ونقدم الحمد للقوى الخالقة لأنها استفزت مزاجاً عاصفاً وجميلا، جليلا وساذجاً معاً ليعكس نفسه في أبيات الشعر، لأن المعارك الطاحنة بين الوقار وحب البشرية التي احتدمت في صمت، داخلة، كانت تنجلي دائماً لصالحه بما أنه لم يكن يواتيه أن يسمح لواحد من العاملين أن يكون له الظفر على الحساب الكلي للعامل الآخر.

وكانت فينوس **Venus** شغله الشاغل، لقد خبرها وصورها في سلسلة من الشكول المتحولة ولكن على غير ما ذهب إليه الشعراء

الآخرون، لم يقر هذه المظاهر المختلفة في نسوة كثيرات ولكن في قلة متهن بأن عمد إلى زيادة عدد النواحي الميتافيزيقية[٦٥] التي توجد في كل منهن، لقد عاش هذا الشاعر بعلاً لزوجة واحدة لأنه كان في صميمه يتشيع لمكارم الأخلاق وكانت على التحقيق، تلك التحولات عن عنصره هي التي رفعته من عالم الحواس الداجي الذي كان فيه، مرة، يديم التفكير وهو مضجر، في بهاء مباهج ديونوسيوس[٦٦] الصاخبة.

ولقد عمل همه الدائم بسعادة أخيه الإنسان، على فك إسارة من عبودية رغائبه وعلى هذا أمكن لمزاجه الصافي أن يصير إنجيليا دون أن يكون بوتستانتيا **Protestant**[٦٧] وفي اندفاع، كما كان يطيب له أن يقول سوى موضوع الصراع بين الحاسة والروح فإذا لم يكن إغريقياً، فإنه لم يكن مسيحياً أيضاً، إنه لا يلبي أي نداء لم يكن منبعثاً من الداخل وسار في كبرياء وضيعة نحو مصيره.

وفي أروس **Eros** – إله الحب حل كل عقدة وعنده، لم يكن الحب موضوع شعر غنائي، أو مغامرة عاطفية، لقد أصبح خدمة مقدسة، فريضة التناسل والتوالد وفرحة التأدية تكون عندما ينمو الجنسان ويتقدمان إلى أقصى مداهما في التوحد، وهو يعتبر ذلك ازدهاراً تحت

---

[٦٥] **Metaphysical** – ما وراء الطبيعة.

[٦٦] **Dionysiac** نسبة إلى **Dionysos** (**Bacchus**)

[٦٧] أي يسير على هدى الإنجيل دون أن يطلق عليه لفظ المعارض أو البروتستانتي.

ضوء السحر وإذا كان هذا هو القنوع الأساس في حياته وإذا كان غرضه الهادي أن ينضج ليصل إلى مصير في مثل هذا المعنى، فإنه حاز النصر فعلا في النهاية، في الخمسين سنة التي قضاها في كفاح.

وعقل دهمل كان من النوع الذي لا سبيل للمأساة إليه، وربما لا يوجد أي عقل آخر في زمنه يفيض بالحياة كعقله.

وكشاعر كان لا معدى للمعترف أن يكون واضع ملاحم- ومن هذا أيضاً يمكنا أن نستعرض عمله وأقداره وموته، وكانت أعمق رغبة تجتاحه هي أن يطلع العالم على معتقداته، ولكن هل كان يوجد عالم حواليه؟ هل، على الأقل كان يوجد شعب؟ لقد نهض دهمل وسافر عبر ألمانيا واعتلى بجسمه الفتي منصة أبهاء الاحتفالات الموسيقية وتلا أغانيه في نغمات صوت، رائعة بمصاحبة إشارات غير عادية شارحة، فماذا وجد؟ مجرد جمهور واستطلاعا وأدبا ومن خلال أول محاضرة فيها أخذ بلبه ألمائتا شاب لأنه جسر على أن يأخذ بلبهم، برز عقل بليد لجمهور دفع الأجرة لم يعنون حتى برفع حواجبهم إلا إذا كانوا قد فعلوا ذلك لمجرد ادعاء المعرفة.

وكان فقط عندما واجه مستمعين من العمال أنه استطاع أن يتبين إحساساً بالمجتمع وروحاً شعبية، لأنه مع تحمسه ومع كل أشواقه لأن يغيب عن نفسه بين ذراعي امرأة، وأن يرى صورته تنعكس في عيني صديق مخضبتين بالدمع، كان عليه أن يقنع بأن يتلو على قلة من بضع مئات، العاطفة التي كان لينفقها عن طيب خاطر بصحية واضع الملحمة

العالية، على العالم كله، ولهذا فإن قصائده الشعبية على ما عليها من روعة، نادرة، بينما كان خليقاً بعبقريته ورغبته معاً أن يصير واحداً من أعاظم الشعراء الاجتماعيين بسلطة رسمية تفوق إلى مدى بعيد، ما لإخوة له في الفلندرز، **Flanders** وأمريكا.

وحتى كمعتزل يظل واضع الملحمة، أو أليست أقوى قصائده تلك الأغنيات التي تصحب الرقص، حتى إذا كان يسميها شعراً عاطفياً أو أغاني العمل؟ وفي سن الثلاثين وجد صيغة ممكن أن يبرز فيها عقله ومزاجه وفي مؤلفه الرئيسي "رجلان" **Zwei Menschen** توجد حقاً قطع جدد تماماً في الكمال الذي وصلت إليه، ولو أن هذه الفقرات ومجموعة صغيرة من قصائده صدرت في سفر واحد لأخذ بألمانيا الدهش من تحيزه هذا الكتاب، ما أصابه الإعياء أبداً في وظيفته كمروض لذاته، وكان يكافح باستمرار في تأرجح يشبه تأرجح فاوست **Faust** بين المعرفة وفرط المراح وبينما كان ينبئ في مؤلفاته عن كل تغيير طفيف في اتجاه حياته، فقد ضرب صفحاً عن أمور كثيرة وضيعة.

ومن بين الاثني عشر سفراً التي وصلت إلينا مما صنفه، سيجتمع الغبار على تسعة منها في دور الكتب.

ولقد فشل في الرواية فشلا ذريعاً، وفي مسرحيات الأحلام ومسرحيات التمثيل الصامت، يجعل فراشات تخيلاته تنتظم في أسلاك ويضع مخلوقات خرافية على عجلات تقرقع، وفي الفاجعة لم يستطع

هذا الرجل الذي أوغل في الطرب، احتمال تحفظ الديالوج الفاتر، ومقالاته على الرغم من عمق التفكير فيها، يعيبها كلها ذلك العناد الذي هو الجانب الآخر لدقة الألمان.

ولكن توجد اثنتا عشرة قصيدة لدهمل، أو ربما قد تصل إلى العشرين، سيقدر لها العيش بعد أن يستخفى ما وضعه أي شاعر آخر شدا في أوروبا حوالي سنة ١٩٠٠، وعلى الرغم من كل ما وضعه من نظريات عن مذاهبه في السلوك، فإن هذه القصائد أمثلة عليا في الفن، حوافذ عبقرية صادقة، ومع أنه ربما يكون قد نظر إليها بعد ذلك في استغراب، وعجب كيف تأتي له أن يضعها، فإنها تساعدنا على أن نضعه في مرتبة جوته– الذي لا يشترك معه في شيء غير هذا الإبداع– أنه كان الشاعر الغنائي الوحيد في جيله.

والموسيقى وهي رسول الشهرة، الملازمة لها أحست هذا مقدماً – وحتى في غضون حياته وضعت ألحان موسيقية لقصائد دهمل أكثر من أي شخص، على قيد الحياة الآن أو معظم من سبقه من كتاب.

وعلى هذا تتوافر لدينا أيضاً هذه الآية غير المباشرة عن كمالة النغمي والإيقاعي، وهو الذي كان يتطلع في مزيج من المرارة والتهكم بينما كان الشباب يتلعثم ويقطب ويداعب الفوضى، قد أصبح حقاً أباً لكل صيغ الشعر الحديثة في ألمانيا.

وتوجد ثم عناصر في عمله أفرط في مذهبه النظري فيها مما قربه

قرابة فيها خطر لماكس كلنجر **Max Klinger** وهذه قابلة للفناء.

وقد تحفزنا الرغبة أيضاً في أن نضرب صحفاً اليوم عن فقرات أخرى يكون فيها صريحاً دون أن يحفل بالمشاعر والذوق الحسن وكذلك عن كل محاولاته بأجمعها في التندر والتفكه، وكذلك وصل به كدحه وحذره ونهج كتابته إلى كثير من المراجعات القاتلة ولذلك أصبح الأصل النبيل يشتبك في حبائل هذه الإضافات الأخيرة كالعقود النورماندية تحت القباب العربية في صقليا وحتى فقرات معينة في **"Zwci Menschen"** رجلان، تتنفس في عسر تحت الفتحات القاسية في الشبكة المعدنية التي ألقاها عليها، وفي نظرياته المتهجمة هذه التي كانت تجعل، أحياناً، مواهبه العقلية ترتد على نفسها، يذكرنا من بعيد، بين وقت وآخر برتشارد فاجنر **Richard Wagner**[٦٨] الذي كان يضمر له الشنآن كنقيض له، يأخذ بخناقه مع أن فاجنر كان يتفوق عليه في القوة.

وكان دهمل يحدق النظر عبثاً من سجن القرن الذي عاش فيه، الذي ارتبط به بأعظم المواثق، ترقباً لفرص عملية ليصبح واضع ملاحم، وبالقرابة الوثيقة والبعد اللذين يكونان لحكم، ترفع أشعاره الحب عن دائرة أفكار الطبقة الوسطى الضيقة، وتكشف عن تبادل بين حب سماوي وحب أرضي وهذا بدوره رفعه إلى حب سماوي، ولقد أغدق

---

[٦٨] فاجنر ملحق ألماني، عبقري له قدرة نادرة، كتب بنفسه أشعاره واستمدها من الأساطير القومية الألمانية في الغالب، وكان له أثر عظيم على موسيقى عصره (١٨١٣ – ١٨٨٣).

على المرأتين اللتين وقع عليهن اختياره هبات الإخلاص النسوي وتحمس قوة الذكور، يا لها من فاجعة يرتبط فيها كل هذا الحياء والخفر بكل هذه الإباحية! يا له من مشهد وضعته اليدان الرقيقتان لهذه الإرادة القوية!.

لقد كان دهمل في الواقع المغري الشهوان الذي جاوزت شهوانيته الحد.

وشعوره بالمسئولية واستقامته وشفقته، وكل أولئك صفات يمكن للكاتب الاستغناء عنها، منعت هذا الشاعر بمولده عن شد الرحال إلى تلك المغامرات التي كان يصلح بطبيعته لها، ويعد أن أنفق عشرة أعوام خالية من الحوادث فيما يوالي مدينة برلين مباشرة، فإنه أنفق عشرة أعوام أخرى، خالية من الحوادث فيما يوالي مدينة هامبورج مباشرة– ولو أن مزيداً من وقت الفراغ توافر لديه أثناء هذه الفترة الثانية من الهدوء وانزاحت الحاجة الماسة، المباشرة لكسب العيش، فإنه في كل هاتيك السنين أنتج القليل أو لم ينتج شيئاً كان جديداً بصفة قاطعة.

ومشاريعه الأصلية وملامحه العظيمة تقع، بين هاتين الفترتين من الحبس الذي فرضه الشادي على نفسه عن طيب خاطر، ولقد تحمل بيئته الثانية التي كانت غريبة عنه، في صبر جميل، يحلم بأشجار النخيل وأشجار الصنوبر ويحب وينتظر ويضع لحياته نظاماً من الفن الجميل.

ولكن، بين حين وآخر، وهو يجلس إلى رحيقه تندلع ثورته وفي مثل هذه الأوقات يستطيع المرء أن يحس حاجته الفطرية إلى الرحلة والسفر.

وقد نفخ له الحرب نفير الخلاص، ولقد أساء فهم الحرب تماماً أو بالأحرى، عقد النية على إساءة فهمها لأن هنا في النهاية كانت المغامرة وبما أنه لم ينطلق أبداً ليعثر عليها فقد أتت الآن لتعثر عليه، وعلى هذا فإن رتشارد دهمل– صديق العالم بأجمعه، الدولي بسبب حبه العارم للبشرية، الذي خصص نفسه للثقافة الأجنبية وشادي[٦٩] الطبقات وليس شادي الأجناس بتاتاً دهمل هذا الألماني الوندي[٧٠] **Wendic German** الذي أمضى حياته مع يهودتين، الذي كان أصدقاؤه من الفرنسيين والبولنديين، الذي ترجمت أشعاره إلى ثماني لغات، هذا الأوربي الاشتراكي أصبح بين عشية وضحاها قومياً، وفي الجد والقدرة على الكمال اللتين يتميز بهما الألمان أخضع نفسه عن طواعية وهو في سن الخمسين للنير البروسي وحاول أن يغض البصر عن الفروق بين نزعته العاطفية، المغامرة القاتلة والمنهج الذي لا روح فيه، الذي تسير عليه الحروب الحديثة، والآن أحس واضع الملاحم أخيراً أن ساعته قد حلت، والآن يمكن أن تصاغ الأغاني كما تصاغ السيوف، أغان يمكن أن تنشدها الجيوش في جبهة القتال وملايين المواطنين إلى الخلف، وشعر دهمل بالشعب وزحف إلى الخنادق.

وقد تهشم بما يدعو إلى الشفقة، وبعد أسابيع قليلة رأى حماسه الخالص في قبضة طبقة حاكمة، صارمة وأدرك إدراكاً حسياً التعاسة

---

[٦٩] الشادي، المغني.

[٧٠] يطلق الألمان لفظ وند **Wend** في معناه العام، على من يرجع أصله إلى الجنس السلافي في ألمانيا أو حواليها.

الكاسفة في مواطنيه الذين يقاسون المحن وبدأ يفهم إهمال أولئك الذين كانوا يملكون زمام القيادة، الإهمال الذي يجب أن ينحي عليه باللائمة ولقد أصابه الهلع لما قام به رؤساؤه من أعمال إجرامية، ولكن إحساساً من أحاسيس النبل صده عن الانسحاب في الحال، وصابر أعواما في أسى وتشكك وقصائد الحرب عينها تنهض أدلة على رجوعه للواقع وذهاب الوهم عنه، لأن لا واحدة منها وصلت إلى مستواه الرفيع أو حازت رضاء شعبياً.

وقد كتب، ولا يزال وفق دينه كمعترف، بياناً مستفيضاً لما قام به من كفاح، بين وطنيته وشعوره نحو البشرية في مجموعها، ولكنه كان قد ارتد إلى المظاهر الفطرية الثورية في نفسه ارتداداً كاملاً حتى أنه في وقت الانهيار نصح بالصمود مدة أطول بما أنه في خلال أسابيع قليلة سيرفع العلم الأحمر أيضاً بين صفوف العدو.

وهلك دهمل بمرض من أمراض الحرب وقد أنكر عليه سعود الجد بموت أكثر يسراً، وفي معنى قومي على الأقل، بموت أعظم مجداً في ميدان القتال، وكان شبيهاً بعامل، في موته.

ولحفاظه بحماس الشباب، دائم النضرة ولأنه حتى عندما اشتعل رأسه شيباً كان لا يزال بين جوانحه إحساس قوي بما ينزع للمغامرة ولأن أشواقه المجونية، الصاخبة، أدت به إلى أن يخطئ الظن بعهد ضئيل فيعده عهداً عظيماً وبحرب بيروقراطية فيحسبها ثورة شعبية ولأنه جسر على أن يكون

واضع ملاحم حتى إلى سنة ١٩٠٠ فإن جنون الشاعر هذا، الجميل، كان السبب في هلاكه قبل الوقت الذي كان يريده تعشقه البسيط بالحياة وبزمن طويل قبل أن تخفض عبقريته جناحيها من فرط الإعياء.

لأنه في السنوات القليلة الأخيرة التي سبقت الحرب كان قد استهل بداية جديدة، وقد شدا بأنغام رنانة واضحة حلوة المذاق ولاذعته معا كخمر بورجاندي العتيق، وكان التماعه هنا في حذر وحيطة، وجلاؤه جلاء مرثية ولما كان قد أعد لمصير مجهول فإنه في يقظة وصبر يواجه إلهة المستقبل التي تمسك بيديها درج مصيره، وفي بطء ينتزع منها الأبيات:

إلـــــى أن تحـــــين اللحظـــــة

التي، قبل أن أكون قد أتممت القراءة

يســـــــقط فيهـــــا الـــــــدرج

مـــــن بـــــين أصـــــابعي الواهنـــــة

وبيـــــــــــدين مـــــــــــوثقتين

تتركـــــــه للريـــــــاح لتنبـــــــئ

بمــــــــــا فعلتـــــــــــــــه

بلزاك Balzac

العيلة[71] تجثم في سكون الليل، وقنديل الزيت يلتهب على المنضدة المتسعة، وإلى الخلف من الكمة[72] الخضراء ينكب رجل عظيم الرأس على أوراقه، ولا يوجد صوت آخر في المنزل ولكن يتصاعد على الحيطان المنحدرة، من الأعماق السفلية، ويتسرب من خلال النافذة المفتوحة لدفء الصيف، حفيف باريس النائمة، إن آخر راقص قد ألقى، منذ زمن بعيد، بسترة العشاء إلى جانب مضجعه والتجار الذين سيكون عليهم أن يهرعوا أولا إلى السوق لم يستيقظوا بعد، وحتى العشاق يقطعون هجعتهم، فقط، لوقت بهمسات ناعمة تخفت وراء ألف حائط وباب.

ولكن هذا الرجل الوحيد يجلس في يقظة تامة إلى منضدته يضيف واحدة بعد واحدة إلى كدس الأوراق البيض التي غشاها برقش قلم سريع يتطاير الشرر منه، هذا هو خفير باريس ولد لينهض بواجب التحديق في القرن الذي عاش فيه، ساعة بعد ساعة، من عل فوق العاصمة ليلة بعد ليلة، حارس جيله، ولكن بهذا الفارق، إنه لا يدق ناقوساً ولكنه يعكف على تدوين تواريخ هؤلاء الآدميين الذين يبرح بهم الشوق، الذين يستغرقون في سبات، الآن، إلى الأسفل منه، إنه يسجل قصص أقرب التجاريب إلى نفوسهم ويصف ما

[71] علية–**Garret** غرفة أعلى المنزل تقع تحت السطح.

[72] الكمة – برنيطة المصباح تشبيهاً لما يوضع على رأس الإنسان من أكمام.

يتمرسون به من ضروب الحب والكفاح والألم في لحظات يقظتهم، وكذلك يسرد قصة أخوة لهم في الأقاليم الفرنسية– الدانين منهم والقاصين– لأنه يستطيع أن يرى، إلى ذلك المدى، من عليته، وطوال جيل تقريبا، يجلس هنا، يخلق ويجمع شخوصه ويعمل على تنسيق حركاتهم الواحد مع الآخر، وهم من كافة الصنوف– وهناك مئات منهم ويبلغ مجموعهم الألفين عداً وهو يكونون عالماً يعج بهم، صورة لذلك المهد، كوناً مصغراً.

والآن ينهض ليوقظ رفيقه لأن رجل الغرب هذا الذي توفرت فيه صفات النوع، له خدن وحيد في هذه الليالي الطوال، شرقي لا قبل له على العيش دونه– قهوته، منعشته، لو أنه خطا أمام المرآة التي تتدلى إلى جوار مضجعه، لتاح له أن يواجه رسم راهب بدين يلبس قلنسوة بيضاء وقد تدلت الجدائل منسابة لأنه كان قد أصبح مفرط السمنة من طول جلوسه مكباً على عمله، ورقبته شبيهة رقبة ثور وهي أبداً مكشوفة عند الحلق، غالبت في الثقل بالنسبة لرجل يلج الثلاثين من عمره وقد علت وجهه جمرة تكون لشخص انبهر نفسه، ويبرز أنف عظيم من الجمجمة الهائلة بشفتين غليظتين شهوانيتين تتقوسان تحته، وكل شيء، ويشمل الذقن المزدوج والشعر الأسود الغزير يفضح كما يظهر، ما كان عليه هذا الراهب من ترف وأنه كان يجد متعته في المسرات الغليظة.

وتقول صديقة الشاعر جوتيه **Gautier** ولكن لم يوجد شيء يشبه تينك العينين، وكان فيهما حياة والتماع وجاذبية، وعلى الرغم من سهره

الليالي، كان بياض عينيه في صفاء وشفوف وزرقة أعصاب أولئك التي توجد في طفل أو عذراء، وحويا ماستين سوداوين تنفذ فيهما في لحظات خاطفة أضواء من ذهب: عينان يريان خلال الحيطان والقلوب يخضع لهما الحيوان، عينا زعيم، عينا أحد الغزاة.

ومع هذا فإن القلنسوة ليست بقناع، إنه لا يشبه شاعرا أو حتى فرنسياً قصير وعليه بدانة، بأسارير فيها غلظة كالتي تكون لحديث عهد بالنعمة يشق طريقه تصعيداً لمجرد التمكن من إشباع نهمه عندما يصل، هذا الرجل صنو المناسك، الذي يظهر وكأن عينيه الفاحصتين في مدى فسيح ترفعانه فوق طبقة أولى النشاط غلاظ القلوب دون أن تسمحا له بالدخول في مجال العقل والتفكير، ينفق في الواقع ثلاثة أرباع كل أربع وعشرين ساعة (وبهذا ينفق حقباً كاملة في مجموعها) في عزلة فرضها على نفسه، وحيداً مع عمله.

لأنه الآن عندما ينبلج الصباح، ومعه ضوضاء النهار، عندما يرجع المصفوفون إلى حروفهم وهو لا يزالون متعبين مضجرين فإنهم يجدون أكداساً من الصفحات المكتوبة بخط يد بلزاك الرائع، غير الثابت، ويتنهدون لأن هذا الكاتب، ولو أن كتابته يعسر قراءتها في عجلة على الدوام وعليهم أن يسرعوا، ويجري الغلام جيئة وذهوبا من الطابع إلى المؤلف مرات قد يبلغ عددها الست وتبدأ عملية التصحيح ولا يكون لها نهاية، والفقرات التي رقشها في أقصى سرعة في سكون الليل يصيغها

الآن لتتخذ وضعها في ضوء الصباح الهادئ، وتدمج صفحات كاملة وتشبك بضمام[٧٣]مع غيرها، وتلفت النظر إلى جمل وكلمات جديدة، صلبان ونجوم وسهوم وعلامات الأبراج الفلكية.

ويسحق كل شيء ويجري عليه الاختبار وتعاد الصفحة ست أو ثماني أو عشرات مرات ودائماً بسرعة الصحفي، لأن الأوراق تنتظر في العادة الفصل التالي لرواية وناشروه ينتظرون نهاية كتاب طال الوعد به.

وعلاوة على هذا فإنه يريد أن يفحص عمله في منظره المطبوع وطوال أيام يجري التصحيحات على حسابه الخاص حتى يعلن المصفوفون المضجرون أنهم لن يعلموا أكثر من ساعة بلزاكية[٧٤].

وعند الظهر يزوره صديق، ويقف وقد أخذت به عاطفة من التحمس والنشاط في حمى[٧٥] النصر لأن كل ليلة، معركة جديدة، إن له شهية عارمة ويلتهم مقداراً من الطعام البسيط ويضع الزبد والسردين فوق الخبز الذي يتناوله ويسرد القصص وهو في الغالب منشرح الصدر ودائما روح الحديث، ودائما نشيط ودائما يزخر بالخطط والمشاريع ومناهج العمل لا سبيل للراحة إليه ويندر أن يأخذ بأسباب المتعة.

وكان بلزاك يساق باستمرار– ما الذي يسوقه؟

---

[٧٣]الضمام – مشبك الأوراق.

[٧٤]منسوبة إلى بلزاك.

[٧٥]الحمى والحمو.

٢

لقد كان من طبقة العمال كرمبراندت **Rembrandt** وكان جدوده زراعاً وعمالا وفَعَلةَ بالأجرة اليومية، وقد وجه الكاهن اهتماما بوالد بلزاك وهو غلام وأخذه من حقول القنب وحصل له على عمل في مكتب، وبهذا، كوتد فاتح، أمكن والده من شق طريقه إلى الطبقة الوسطى، وفاز بثم وظيفة أو بغيرها عن طريق الثورة[٧٦] وفي النهاية وهو في الخمسين من عمره تزوج من فتاة صغيرة من الطبقة الوسطى الدنيا **Petite Bourgeoisie** وأحضرها من باريس إلى تور في الإقليم مسقط رأسه حيث أصبح يكتسب مالا ويقوم بالعمل في حكومة المدينة، وهناك كتب مقالات بديعة ضد الكلَب وفي الدفاع عن الأطفال غير الشرعيين، وقد وضعت له صورة واليراع في يده، وهو لم يكن يلائمه، وإذ هو يجلس، يمكن أن يحسب واحداً من أولئك الزراع الذين خاضوا الحرب وأصبحوا جنرالات تحت قيادة نابليون: وقد كان سليم البنيان، ينزع للمجانة، في سلام مع نفسه ينحو نحو رابليه[٧٧] **Rabelais** في مكره الريفي وفي كلفه بالمتعة وتدعوه أمه "كلب غاسقوني **Chien de Gascoigne**" وحزم أمره على أن يبلغ المائة سنة وقد ورث ابنه كل هذه العافية والحماس والجسارة.

وأنوريه **Honore** الذي استمد هذا الاسم الجميل من قديس يوم

---

[٧٦] الثورة الفرنسية.

[٧٧] **Rabelais** كاتب فرنسي ولد في شينو **Chinon** بين سنتي ١٤٨٣ و ١٥٠٠ وكان طبيباً وأستاذا للتشريح وهو مؤلف **Gargantuan**.

ميلاده رأى إلى جوار أبيه أماً قلقة، مقترة جافية الطبع كانت نظرتها إلى العالم تنم عن سوء الطبع وعدم الرضاء وكانت، كما أسر بعد ذلك، تكره ابنها، "لم يكن لي أم قط، لقد أضمرت لي البغضاء من أول يوم لي في الحياة الدنيا، وقد أوكل أمري في الحال إلى عناية مُرضع .... ومن السنة الرابعة إلى السنة السادسة من عمري كنت أرى أمي أيام الآحاد فقط ... وبين السنة السابعة والسنة الرابعة عشرة لم أرها إلا مرتين، ولقد أكد لي والدي أني لن ألقى عدوًّا أسوأ منها كل حياتي"

وسعى الفتى وقد استمد إلهامه من التغيرات الهامة في البناء الاجتماعي، تلك التي أوجدتها الثورة، إلى النجاة من محبس بيته الضيق وخوائه، ووجد حياة المدرسة في فندوم **Vendome** صارمة غاية الصرامة.

كان عليه أن يبقى بعد انتهاء حصص الدرس وكان يضرب وقد يؤول أمره إلى الحبس، ولكن حدث أنه كان يوجد كاهن عجوز هناك أوكل إليه القيام على المكتبة وكان يسمح له بالاطلاع على جميع الكتب، وشرع، الآن، الفتى الذي لم تضف عليه الطفولة شيئاً، في القراءة وأن يقرأ في انتظام خلال الثلاث سنوات القوادم، وعكف على القراءة كمن به جنة، في نهم وتخبط عشواء- وكتب وهو في الثانية من عمره عجالة عن الإرادة الإنسانية، ولكن إفراطه في إعمال الذهن كان مما لا طاقة له عليه، وقد حمل إلى كسر بيته مريضاً بالحمى وفرط الإعياء، وظل أسابيع يلازم مرقده وقد فقد الوعي أو كاد.

وكان هذا أول نذير خطير للطبيعة، ولو كان بلزاك أصغى إليه، لكانت حياته أوفر سعادة وأشمل هدوءً ولكانت مؤلفاته سُلبت من أوروبا: ولكن شاء القدر بأن تكتب هذه المؤلفات وأن يكتبها هو بنفسه وعلى هذا ففي العشرين من عمره، بعد فترة مدرسية أخرى في باريس حيث كان يقرأ في نهم عظيم وهو يدرس القانون، استقر رأيه نهائياً على أن يكون مؤلفاً، ما الذي حدا به إلى هذا؟

إن اثنين من المثل العليا اللذين يعترف بهما إلى أخته "أن يكون ذائع الصيت وأن يكون محبوباً– **Etrecelebre et etreaime**" هما في الغالب من مميزات الشبان الموهوبين في العهود الرومانسية[٧٨] ومع هذا فإن الشيء غير العادي في حالته، كان طموحه في أن يكتب رواية ناجحة ويوطد في سرعة دعائم اسم له "حتى يمكن الاستمتاع بالحقوق الملكية التي تكون للعبقرية، ولقد أحس فعلاً، دون شك، أن لديه خيالاً خصباً– ولكن اختياره الأدب حرفة له، دون السياسية أو الأعمال، كان الواعز إليه أصلاً انشغاله بالكتب.

ولم يكن الدافع له أساسياً حب الكتابة أو الرغبة في الخلود، إن ما كان يريد أن يفعله هو الوصول، وقد تحول صوب الفن كوسيلة محتملة لتحقيق ذلك، وفي سن العشرين بدأ بلزاك الذي ترجع أرومته إلى طبقة

---

[٧٨] **Romantic eras** يمتاز فيها الأدب بحب الجمال والانطلاق من الواقعة بالخيال والتعبير عن العواطف وقد يسمى الأدب الإبداعي تميزاً له عن الأدب الإتباعي (الكلاسيكي)

العمال التصعيد في سفح الهرم، من الفاقة وخمول الذكر إلى النطاق الأضيق، نطاق المال والمراتب، وبما أنه كان قد عقد النية على أن يشق طريقه إلى الأمام حتى يبلغ القمة عينها وحيث أنه كان يمكن في خطوط هذا العنق الهائل نشاط منقطع النظير في تاريخ الفن، فإنه قطع هذه المسافة الفاصلة في خلال الثلاثين سنة التالية– ولو أن الجهد كان ليكلفه حياته، وعندما وصل الذروة إنهار إعياء، ظافر غلب على أمره.

وهذه الدوافع الواقعية إلى أقصى حد تقريباً (رغبة الصاعد في تحسين مركزه ورغبة رجل الطبقة الوسطى الدنيا في شكول من العيش أكثر حرية) ساقت بلزاك من بيت أبيه إلى العلية، وكانت توافي والديه رؤى لأبنهما كمحام أنموذجي والآن اجتاحهما رعب وبشحهما المرير حولا سنتيالاختبار إلى فترة مسغبة، وفي الكلمات التي جعلها تجيء على لسان "شخصي الثاني **Alter ego**" "في أديم الحزن **Peau de chagrin**" "إن فطوري لفة من الخبز تقادم عهدها، غمست في اللبن كانت تكلفني درهمين، وفي الظهر كنت أطعم يوماً وأتخلف يوماً وعلى ذلك كانت نفقتي اليومية تسعة دراهم لا غير، وكنت أستنفذ زيتاً أكثر مما أستنفذ خبزاً، وكانت تكلفني الاستضاءة بسراج الليل أكثر مما تكلفني غرفتي، وهذا الصراع مع العدم[٧٩] كان طويلا وشديداً ولا هوادة فيه"، وكان ينفق أيامه في دار للكتب قريبة لأن ولعه ومنهجه معاً، كانا أن يقرأ وأن يتعلم وأن يستحوذ لنفسه على كل شيء

[٧٩]العدم والعدم– الفقر.

يضفي على هذه الطبقة الممتازة مقومات الاعتماد على النفس.

وفي أوقات الحاجة، كان يحتفظ بروحه المعنوية بالاعتقاد الوطيد في نجاحه النهائي: "إن أخاك أصبح يعيش عيش العظماء أي أنه يموت جوعاً" والقهوة تضع بقعاً مخيفة وتحتاج الحال إلى ماء كثير لإزالتها، ولكن الماء لا يصعد إلى وكْني[٨٠] (ولو أنه في الأيام المطيرة ينزل) ... لقد التهمت بطيختين– يجب أن أدفع ثمن هذا خبزاً جافاً.

ما الذي يكتبه، إذن، بين المحبرة ووعاء القهوة؟

إنه يقرض، بعرق جبينه، الكسندرين **Alexandrines** في محاولة وضع مسرحية فاجعية عن حياة كرمويل **Cromwell**.

ما أشق كتابة الشعر، شيء ما، الوزن أو القافية، يكون أبداً في غير موضعه! ... وعندما تكمل نهائياً ويرجع إلى بيته ليقرأها على الأسرة لمجتمعه: تلقى فشلاً ذريعاً ويستشار أستاذ يحترف الكتابة فيقدم رأي خبرته: "شجعوا المؤلف على أن يصبح أي شيء يريده، إلا أن يكون كاتباً" هل يأخذ الآن سبيل العودة إلى القانون؟ هل أقنع؟ إنه يهز رأسه ويجيب منشرح الصدر، "إن المأساة لا أجيدها، إذن فلتكن الرواية"، ويعود إلى المنزل، ومع أنه كان عليه أن يحتمل الاستنكار وهجمات السخرية وضع أربع وعشرين من عمره، وقد تجردت هذه الكتب تجرداً

---

[٨٠] الوكن في الجبل والوكر على الشجر.

تاماً عن القوة وكانت كتابتها لمجرد إمداد السوق، في ذلك الوقت، ولجلب مال يسير إلى مؤلفها الذي كان يقدرها قدراً بخساً، حتى أنه أصدرها تحت أسماء مستعارة.

وفي نفس الوقت تسلم مطبعة وجازف أن يكفل له إيراده العيش المستقل مدى الحياة، كرجل يقرض الشعر، وكان مثله الأعلى رتشارد سون Richardson ذائع الصيت في ذلك الزمن، الذي جمع ثروة كناشر وطابع لرواياته، التي وضعها بنفسه، ولكن بما أنه كان يرى الهدف في جلاء أعظم من رؤيته الصعاب التي تحول دونه، وبما أن نشاط الزراع المتأصل فيه أصبح ضحية خيال متسرع، غالي في الخصب، ففي خلال عامين تفوض صرح مشروعه، وبعد ذلك ابتاع مسبكاً للحروف، عظيماً ولكن عندما أفلس هذا بدوره تخلى عن الكفاح ... وقد غدا الآن مديناً بأكثر من مائة ألف من الفرنكات ومن الآن أصبحت هذه الديون بيضة العش السالبة[٨١] التي كان لتتجمع حولها كل أرزاء حياته، والأثر الآخر الوحيد لهذه المحاولة، مؤلف بعنوان "بلزاك كطابع" الذي أصدر ومعه كل الوثائق التي تتصل به، في شكل سفر فاخر، بمناسبة مضي قرن على مسبك الحروف هذا.

وهذا الفشل الذي عاناه وهو في السابعة والعشرين من عمره وما مر عليه من التجاريب كلها عن تذكرات التعهد بالدفع، ومقرضي النقود، وفئات الربح الفاحش وما يلازمها مع أحكام قضائية– جعل بلزاك أكثر

[٨١] هي بيضة حقيقية أو مقلدة توضع في العش لحمل الفراخ على وضع البيض.

إحساسا بالمشهد المعاصر على وجه عام بينما أمده ببصر عميق في طائفة من الحوادث، بعينها، على وجه خاص- وعلى ذلك أصبح، بإمداده بعدة من الحقائق وفي نفس الوقت باتجاه ملائم، وقد تعاظم بحيث اتخذ أبعاد رمز، والعواطف التي استمدها إلى أقصى مداها، من هذه الخيبة كرجل أعمال، جعلت من بلزاك شاعراً.

ومن الآن عرف أن ذلك لم يكن وقت المهاترة بالقريض فقد واتته الشجاعة آنئذ ليستخدم كموضوع كتاب، آراءه في الحياة، تلك التي استمدها من اتصاله الشخصي بالحقائق الواقعة.

ولقد وجد بلزاك أن المال هو الدافع الغالب في عصره وكتب على هذا القياس.

وبعد ذلك بعامين ذهب صيته في الآفاق، وكتب الآن باسمه في السنتين الواقعتين بين الثامنة والعشرين والثلاثين من عمره أول أو سفرين من "مشهد الحياة الخاصة **Scene de la vie Privee**"، "وأوديم الحزن **Peau de Chagrin** والعشرة الأوليات من "حكايات ضاحكة **ContesDrolatiques**، وكان أول شخصية مبتكرة عظيمة له، غوبسك **Gobseck** المرابي.

-٣-

وعاش عشرين سنة أخرى، وحتى إلى اللحظة التي وافاه فيها الأجل كان يراوده أمل جنوني في أنه سيلغي فشله السابق بما له من موهبة

عقلية ويصبح مليونيراً، وبينما كان يرزح تحت الحاجة إلى كسب ستة آلاف من الفرنكات سنوياً ليسدد فائدة ديونه وعلاوة عليه، مثل هذا المبلغ لنفقاته العادية فقد كان دائماً يتحين الفرصة للوصول إلى ثروة بضربة واحدة، ولم يعتمد بومارشيه **Beaumarchais**[٨٢] أو فولتير **Voltaire** على دخل تواليفهما ولكنهما على النقيض لجأ إلى المضاربات المالية ومع هذا فإن بلزاك تمسك بنظريته وكان يعزّي نفسه بالمثل الفريد الذي ضربه سكوت **Scott**، ذاك الذي نجح في القيام بما لم يستطيع بلزاك– لعدم كفاية الحماية القانونية لعمله– أن يقوم به.

ولماذا؟ هل كانت له نزعات كلفته مئات الآلاف؟ هل كانت توجد أبواب، كمحظيات مسرفات أو حشم يطالبون بالكثير أو ردهات للقمار أو جواهر؟ لا شيء من هذا كله، مائدة خمر طيبة، آنية جميلة أو قد تقام حفلة صغيرة بين حين وآخر ولكن لا نساء أو خيول أو رحلات.

إن القوة الوحيدة الدافعة له كانت تشوق من يقوم بالرقي إلى ثم مثل أعلى من الإبداع، غامض، كان مطمحه أن يُعدّ من بين الصَفْوة وأن تؤشر السلطات على جواز عبقريته وكذلك كان يُصّر على أنه لكي يحصل المرء على تقدير طبيب في باريس، يجب عليه أن يظهر بمظهر النعمة وقد اتخذ أسلوباً مصطنعاً كان الغرض منه أن يدهش الناشرين والمحررين.

---

[٨٢] كاتب دراما فرنسي وهو مؤلف "حلاق اشبيلية" (١٧٣٢ – ١٧٩٩).

وعلى هذا، حدث أن بلزاك، لم يُتعرّف عندما اقتحم دار الطباعة في الصباح وهو يرتدي سربالا[83] عليه مربعات رمادية وسوداء وحذاء ثقيلا وشالا[84] أحمر حول عنقه وقبعة واسعة على رأسه– وساق، بعد ظهر ذلك اليوم، مركبته ذات العجلتين بنفسه خلال الغابة بينما كان خادمه إلى الخلف على قدم الاستعداد لو أن الحصان الصغير عمد إلى الجماح، وقد كلف حائكاً عصرياً أن يصنع له سترة طويلة زرقاء تضيق حول المعدة وطلب من أكبر تاجر جواهر في باريس عصا طمعت رأسها بالجواهر وكذلك ظهر على مائدة الشاي مع دوقة أبرانتة **Abrantes** وكان يُرى في المساء بين مشاهير ذلك الزمان في مقصورة في مسرح الإيطاليين **Theatre des Italiens**.

ولم ينزعج عندما وضع له غافرني **Gavarni** الذي خاله في ملابسه المدنية بائعاً متجولا، صورة هزلية كرجل يغالي في التأنق، ولم يشك في أن هؤلاء الأشراف من طبقة ماركيز وماركيزات كانوا يضحكون من اللقب ومن شارة الأسرة اللذين أضفاها على نفسه دون تبصر إذ لقب نفسه "مسيو دي بلزاك دانتريج **Monsieur de Balzac d'Entraigues** مع أنه لم يكن تجمعه أية صلة قرابة مع أسرة كهذه وكان أبوه أول من كتب الاسم الذي يحمله الزراع "بلزاس **Balsas**، "بالكاف **C**" ولكن الابن أصر على نُبل محتده، وأسماؤه

---

[83] البنطلون.

[84] كلمة فارسية عربت.

المستعارة كانت على الدوام أسماء تحمل ألقابا من اختراعه هو! ...

كان هذا بلزاك، الذي كرجل أدب، كان من أوائل الكتاب الذين صوروا القودة المطردة والحيوية في الطبقة الرابعة من طبقات الأمة[٨٥] والذي كان أستاذاً متفوقاً في تصوير انحلال سيدات الطبقة الأرستقراطية أولات الزخرف ولكن كرجل مجتمع عصري لم يكن له مطمح أكبر من أن يدخل في عداد ذلك المجتمع عينه، كان هذا بلزاك أعظم ناقد للمجتمع، قوة، والذي كان أعظم أمل قرباً إلى قلبه، أن يصبح، ليس زعيماً شعبياً في المجلس النيابي وإنما شريفاً من أشراف فرنسا.

وكذلك رمبراندت **Rembrandt** في عهده الأوسط كان يريد أيضا أن يقدم للعالم مشهداً، ولكنه عكف على تزيين المنزل والزوجة وحسب وكان يحلم بالسلاسل والخوذات والمرايا ويمتع عين المصور فيه بما يكون للنسج وتلاؤم التركيب، والضوء من تأثيرات وعندما أخذ منه كل هذا، انسحب في هدوء إلى غرفة واحدة صغيرة وصور المتسولين كملوك، وبلزاك، بمجرد أن استولى عليه هذا الجنون، لم يفلت أبدا مرة أخرى منه وضحى بحياته في سبيل هذا الغرض الوهمي.

وقد أثث منزلا في زخرف واستدعى روسيني **Rossini** الإباحي الشهوان ومحظيته كضيفين واستعار الأدوات الفضية من ناشر كتبه حيث كان ما يملكه منها مرتهناً.

---

[٨٥] أي الصحافة.

"سأقدم أحسن الخمور وأعظم ما لذ وطاب وأندر الزهور وقصاري القول، سأقدم أفضل ما لدي". هل أفضل ما لدى بلزاك لا شيء إلا تقليد روتشلد **Rothschild**؟ ولقد جهر روسيني **Rossini** أنه لم ير قط شبيه ذلك في بيت أي أمير، وأنه لم يطعم أبداً أو يشرب أفضل مما طعم أو شرب، وقد كان يشع حماساً.

وتضاعفت ديونه نتيجة لفئات الربح الفاحش، وغدا الجبل الذي كان يقف حائلا بين الشاعر والحرية، أكثر فأكثر، بحيث لا يمكن اجتيازه وسار في أعقابه محضر والمحاكم في كل مكان حتى يتخلص من أحكام التنفيذ فقد انتقل إلى منزل له مدخلان على شارعين وهرب من باريس، وعلى هذا فإن صيته الذي كان يتصاعد في سرعة اشتراه بثمن فاحش، وقد وعد باثني عشر سفراً عن المجتمع المعاصر– ولم يكن قد كتب منها كلمة واحدة– لقرض يبلغ مقداره ستة وعشرين ألفاً من الفرنكات وتبين خطاباته بأن هذه الصفقة بعثت فيه رضى أعظم بكثير مما كان يتيحه إتمام وفرة من الروايات، والآن منذا الذي يثق بسندات دين الناشر؟ إن مؤلفاً كان يسأل نفسه هذا السؤال منذ مائة سنة خلت، وعلى هذا فقد كان يسدد المال لدائنيه بسندات دين حتى يمكنه بين حين وآخر أن يحصل على بضع مئات قليلة من الفرنكات نقداً، ثم اشترى آنية من الصيني ثم حملها إلى حانوت الرهن بعد ذلك بأربعة أيام.

ولقد شبه ناشري كتبه بنسر فرومثيوس **Prometheus** وفي

مناسبة أخرى أصر على أنهم "لا يفكرون في شيء غير النهب" وقد كتب لواحد منهم بينما كان على سفر- "يوما، وذلك اليوم ليس ببعيد، ستكونون قد جمعتم ثروتكم مني وستمر مركباتنا في الغابة وأعداؤكم وأعدائي سيأخذ منهم الحسد كل مأخذ".

صديقك هـ. دي. ب" وحاشية في حروف بالغة الدقة:

"بهذه المناسبة، يا صديقي العزيز، لم يبق لدي شيء وعلى هذا فإني اقترضت ألفاً وخمسمائة من الفرنكات من روتشلد وحررت سنداً بهذا المبلغ عليك، يسدد بعد عشرة أيام عند التقديم"

وكان الموقف مزمناً، وبنسبة تزايد صيته وقدرته على الكسب، فإن ادعاءاته وخيالاته كانت تأخذ في الازدياد، وكان يعيش كالناسك ولم يكن في حاجة إلا إلى مئات قليلة من الفرنكات كل شهر، ولكنه ضاعف ديونه بما كان يشتريه من أشياء سخيفة وأصبح لزاماً عليه أن يزيد سرعة عمله تبعاً لهذا، "إن هذه الحاجة المخيفة للمال، وهذا المطلب الذي دفعني إلى أن أكتب: "أونورين **Honorine**" في ثلاثة أيام سيضطرني إلى أنهاء "الحب الأخير" في ثلاثة أيام أزيد، إنك لا تعرف كيف أن هذا الضغط الدائم يذلني".

وعلى هذا فقد وضع في سنة واحدة كتابين يختلفان اختلافاً كلياً "البحث عن المطلق **La Recherche de l'absolu**" و "الأب غوريو **Pere Goriot**" وقد أخرج الأخير لمجلة، خلال ستة أسابيع،

لم ينم فيها إلا ثمانين ساعة، رهو، الشعر المطبوع، لا يتحدث أبدا ولو مرة واحدة عن الحالات النفسية أو غيرها من أمثال زخارف الروح هذه.

والأرقام هي أبدا أرقام "مائتا ساعة كل شهر في كل ساعة (ي) من الصفحات فيكون الناتج (س) من الأسفار كل نصف سنة، يشمل "نائب آرسي **Depute d' Arcis**" أربعة أسفار والمجموع الكلي للشخصيات مائة وعلى ذلك يمكنك أن تتصور جيداً كم يحتاج الكتاب من عمل عقلي" وكأن هذا دائماً شبيه بعمل يدوي.

ولما كان يعتبر الكتابة عملاً رتيباً على المرء أن يتعلمه، ولما كان يدعى أنه واصل الكتابة طوال أعوام كثيرة تحت أسماء مستعارة "ليجعل ذراعه مرناً" فإنه كان لا يعرف الكلال في رعايته تفاصيل مهنته وكان ينظر إلى عمله بالروح العملية والثقة بالنفس اللتين تكونان لأستاذ، ولقد أقام دعاوي قضائية ليمنع نشر مؤلفاته دون إذن وعندما كسب قضيته، كتب مقدمة مثيرة خلال ساعات قليلة ووضع طبعتين في يومين، وإذا أسس مجلة فيجب في الحال أن "تتغلب على كل ما عداها" وقد خسر في ذلك أربعين ألفًا من الفرنكات، ولقد كوّن جمعية للمؤلفين وعرض على واحد من زملائه مهزلة مبتذلة وعلى آخر، فاجعة لم يكن لديه منها إلا الجملة الأخيرة، وعلاوة على مؤلفاته الكبرى فإنه كان يخرج باستمرار مجملة، مقالات افتتاحية والقصة أو النقد المسلسل وخطابات باريس للصحف وفيها يتحدث، عن الطباق والخمور والوزارة الجديدة وسياسة

الضرائب والطعام الجيد والقفازات، ويكتب في حبور إلى صديق "يجب أن يمر كل شيء في صف"– الأدب الخفيف الذي يباع ببنس وكذلك روايات المجتمع والأفكار العظيمة التي لا يفهمها أحد" وكوسيلة للحصول على مشتركين في طبعة" لتوليفه كاملة، فكر في أن يعطي قراءة عقوداً بمنح سنوية بالإضافة إلى الكتب.

وكان له معين عظيم من النشاط وكان العمل أمراً طبيعياً بالنسبة له حتى أنه حمل، في يسر تبعات جديدة وتحت ضغط هذه التبعات، كان عليه أن يبذل المزيد من نشاطه حتى أن قدرته الفطرية الهائلة على العمل درجت في الزيادة في عضون حياته، "إذا لم يغص الفنان في عمله مثل كرتيس[٨٦]**Curtius** في الهوة السحيقة وإذا لم يكدح في خندقه كعامل منجم دفن حياً .. فقد أذنب في قتل موهبته العقلية، ولهذا السبب فإن نفس الجائزة ونفس أوراق الغار يقدمان للشاعر كما يقدمان لقائد جيش".

وبسبب وفرة ما كان يكتب، هل كتب في غير ترابط؟ وقد قال إنه يعامل سفنه الحربية التي تسير بالمجاديف والشراع كدبة تلعق أجرها[٨٧] ولم يقتصر على مجرد المراجعة وهو مضجر، كاره **ad nauseam** بل كان يستشير أيضا الخبيرين ولم يكن للرضى سبيل إليه أبدا وكان يعرف

---

[٨٦]شخصية خرافية في الأساطير الرومانية، أحدث الزلزال فجوة في الفورم **Forum** وتكهن الناس ألا شيء يسدها إلا أعظم كنز في روما ولما كان السلاح هو أعظم كنز فقد اندفع **Curtius** بسلاحه وهو يمتطي جواداً، في الفجوة فانسدت.

[٨٧]أجر وجراء ولد الكلب والسباع – جمع جرو.

كيف يفيد من النقد الفطن، وعندما كان يخرج طبعة جديدة، فإنه كثيراً ما كان يعيد النظر في رواياته القديمة جملة، جملة، بينما يكتب في أقصى سرعة روايات جديدة، وأحياناً كان يتعدى أرقامه القياسية: وفي حماس للعمل عارم جعل جميع الصفافين على أهبة الاستعداد حتى الساعة الحادية عشرة ليلا، وفي نفس الليلة على صفحتين من صفحات الطابع، أنجز صعود السرافيم **Ascension of Seraphita** بما تضمنه من المراجعات كلها، وفي ختام حياته، بعد بداية حياته العملية الصحيحة باثنتين وعشرين سنة، كانت توجد أكثر من مائة رواية كاملة تحمل اسم بلزاك حول العالم.

-٤-

ماذا كان مصدر هذا المحصول الهائل؟

لو أن المرء تطلع إلى أول صورة له، فإنه يلحظ شاباً بعينين متحفزتين، مفتوحتين في اتساع، ولا يوجد في العينين أي تعبير ينم عن التأمل أو اليقظة، إنهما يتلمسان الأشياء في عداء، إنه يرى ما يسمع ويرى ما يقرأ محولا كل شيء إلى الحاضر، إلى صورة بما أن الحياة المعاصرة فقط هي التي تقدر على استنهاض موهبته ونادراً ما كان يعالج الماضي، والكتب القليلة التي فعل فيها ذلك يمكن أن تستبعد دون خسارة، وكان يحقر المؤلفين الذين يستطيعون فقط التعبير عن أنفسهم بصيغ روما أو اليونان، إن الشيء الوحيد في التاريخ الذي كان يسترعي

اهتمامه كان فرنسا، فرنسا الحاضر والماضي القريب.

وفي بادئ الأمر، كان هذا نوعاً من الاقتصاد الغرزي وبعد ذلك أصبح منهجاً محكماً، ولكنه لم يكن قط مجرد قومية، كان في حاجة إلى منظر خلفي لرواياته ووجده في متناول يده، وطنه بالذات.

ولو أنه قرأ أشتاتاً من كل شيء فإنه لم يُعن بالدرس بتاتاً وكان يجمع ما يمكن أن يخدم أغراضه وحسب، ومع هذا فقد اختزن كل ذلك في ذاكره هائلة وعت كل شيء- الكلمات والأمكنة والتعبيرات- بنفس الإخلاص، وبما أنه كان يملك قوة الخيال الخالقة التي تميز الكاتب بفطرته، فلم يكن في حاجة لأن يجزئ نفسه حزقاً في سرد تاريخ حياته، ويكاد لم يستعر مواقف من حياته الخاصة وأندر من ذلك شخصيات ولم يصور نفسه أبداً ولكنه كان يصور أجزاء من الغرف أو المناظر البرية أو الأحاسيس، وعلى شاكلة شكسبير، لم يكن يوجه عينه للأفراد ولكنه كان أبداً ينظر إلى النوع إلى الخلف منهم، ولقد وجه ملاحظاته لكل صنف من صنوف الإنسان **homo sapiens** ولهذا السبب عينه لم يخلق بتاتاً شخصية مغلقة **a clef** ولم يرسم من الطبيعة فوتران **Vautrin** أو جوبسك **Gobseck** ولوسيان**Lucien** أو راستنياك **Rastignac** واستر **Esther** أو دلفين **Delphine** مع أن القصصيين كانوا بانتظام يستمدون شخصياتهم بهذه الوسيلة وحتى جوته **Goethe** كان يفعل ذلك أحياناً، ومع هذا فبينما كان ينتج الأنواع فإن ملاحظته النفاذة

وإحساسه السليم بالواقع جنباه خطر التفكير المجرد الخاوي.

ومن العسير نسيان شخصياته وذلك نظراً إلى خصائص دقيقة تلازمهم تظهر كأنها تأصلت في الذكريات البعيدة، ويكتب إلى محظيته، "إن تفاصيل كثيرة صغيرة، درجت عندك في طي النسيان منذ أمد بعيد يؤرقني نصف ليلة عندما استغرق في البحث عن المواضيع دون أن أظفر بالنجاح ومرة أرى طريق السابلة من ديوداتي Diodati أو حصباء الشارع المركزي في منزه مونسو ParcMonceau ومرة أخرى يكون توكيد معين، ثم ضغط على اليد يقرب أن يكون صبيانياً بينما كنا نتطلع إلى المصورات معاً.

وعلى وجه التحقيق، كانت الأنواع التي يضيق بها أعظم ضيق في الحياة– السماسرة والمحامون والمرابون– هي الأنواع التي وأتاه فيها أعظم نجاح– لتعطش طبيعي للانتقام ولكنه يصور أيضاً بنفس الخطوط لأخاذة[٨٨] واللون، الطبقة الوسطى الدنيا والزراع، الطبقة التي أتى منها الأشراف من رتبة ماركيز ودوقة– وهي الطبقة التي كان يدأب على الرقي صوبها والجنود والضباط وهي الطبقة التي كان يضمرلها الحسد، ومع هذا فإنه لم ينطلق أبدا، عن قصد، سعياً وراء الحقائق، كان فقط وهو في العشرين من عمره بينما كان لا يزال يقرض الشعر يعمد عن تدبر إلى ملاحظة الناس– عَمَله في الأرباض، ومتشردين وأطفال– ولكن في ذلك

---

[٨٨] **Saliency**.

الوقت لم يداخله فكر لرسمهم، وبعد ذلك "أصبحت الملاحظة آلية بالنسبة لي، "ودون أن أحيط علماً بالجسد، كان في قدرتي أن أغوص في أعماق العقل: نعم، عن طريق إدراك كل تفاصيل حياة الناس، استطعت أن أذهب إلى ما ورائها، كان في استطاعتي أن أسهم في تجاريب شخص آخر وذلك بأن أضع نفسي في موضعه".

ومع هذا، فإنه قام فعلا بدراسة مناظره الخلفية، ولم يتوفر لشخص البتة فهم وثيق لا يني لباري زمنه أكثر منه، ولقد سافر خلال بعض المقاطعات لمجرد البحث عن تفاصيل وصفية، إن أعظم منظر بري عكف إطلاقا على دراسته، بساط جو بيلن[٨٩] **Gobelin** ذاك الفسيح الذي لا نهاية له والذي لم يكف أبداً عن نسجه، كان عهد نابليون، عندما ولد بلزاك في سنة ألف وسبعمائة وتسع وتسعين كان بونابرت **Bonaparte** يطيح بحكومة الإدارة، وعندما أقلع الإمبراطور بالسفينة لآخر مرة، كان بلزاك يبلغ من العمر السادسة عشرة، وكان والده قد كتب دعوة إلى إقامة تمثال هائل، وكان الابن يرى في نابوليون بكل بساطة عبقرية تنتمي بالقرابة إلى عبقريته وفي الحق يمكن موازنة الخصال الأساسية في خليقتهما بما أن كليهما كان يدين بعمله إلى الجمع بين الخيال والنشاط، إلى حد سواء.

---

[٨٩] نوع من الأبسطة الفرنسية غالية الثمن تنسب إلى أسرة من الصباغيين الفرنسيين استقرت في باريس منذ القرن الخامس عشر.

ولكن رجل السياسة استطاع فقط أن يجتذب شاعر الملحمة كأول نوعه، وليس كموضوع، ولقد جمع في دفتر تذكرات كل أقوال نابليون التي استطاع أن يجدها وبعد ذلك باع هذه الخمسمائة من مأثور القول بأربعة آلاف من الفرنكات لبائع قبعات ذهب ظنه إلى أنها قد تساعده على الحصول على وسام فرقة الشرف وما كان الشاعر ليأخذ على عاتقه أبداً أن يضع صورة للإمبراطور الذي يمر خلال روايات بلزاك، التي تمتزج فيها المأساة والمسلاة **tragi-comedy** كمجرد إله، في حضور غير محسوس، ويظهر مرتين أو ثلاث مرات بشخصية الوسيلة التي يستطيع بها إله أن يهبط إلى المسرح **ex machine**وكان البيئة أو المنظر الخلفي لنابليون هي التي استرعت اهتمام الروائي وعلى هذا فقد استوعب قصص دوقة عجوز ومروض حيوان كانا معه في مضر، وقد وضع رسوماً لرماة القنابل والحمالين والكهنة ومرودي الميرة وأحاط علما بمعركة فاجرام **Wagram**من ابن شقار زنبرج **Schwarzenberg** والتهم حكايات مترنيخ **Mettrnich** ولكنه فجأة يبعد عن كل التفاصيل الحقيقية وفي "طبيب الريف" يقص جندي عجوز كان قد أصبح بريداً[٩٠] يحمل الرسائل في الريف، على الزراع في جرن[٩١] قصة الإمبراطور وكأنها أسطورة قديمة.

---

[٩٠]البريد – الرسول.

[٩١]الجرن والجرين في الأصل موضع التمر الذي يجفف فيه.

لأنه ما الجدوى في دقة الملاحظة، التي يمكن أن يحصل عليها هو– أو أي شاعر آخر– إذا لم تتوار هذه الملاحظة، الفينة بعد الفينة، في ضوء الشمس المشتركة المستفيض وإذا لم تغمر خطوط الحقيقة الحادة، في لمعان هذه الخدعة الذهبي! ... وبهذا، حتى في بواكير رواياته كشف بالحدس عن حياة أولئك النسوة، أولات الألقاب، الخاوية، اللواتي وقع هو بعينه، بعد ذلك فريسة لهن وإذا كان قد أنفق الكثير من الوقت والمال والتفكير لمجرد أن يظفر بالجلوس على منضدة شاي لأمير فإنه أيضا صور سيدة أمثال تلك الندوات[٩٢].

فيدورا **Feodora** الجميلة وهي ترقد في فراشها ليلاً وقبل أن تستلم إلى النوم والعشيق، تدرس التقارير عن السندات.

"إن عدم استقراري هو وليد خيالي الذي يستطيع أن يتقبل شيئاً بعد الآخر ومع هذا يظل على حالته العذرية لم يمسسه شيء كالمرآة لا يعكر جلاءها ما تعكسه من مرئيات، هذه المرآة هي عقلي ... إلى أي شيء أدين بهذه الهبة؟ لا أدري، أبصر ثان؟ لم أتبين كنهه بتاتاً، إني أستحوذ عليه وأستخدمه ... وعندي أن لا شيء يهرم، إن كل شيء على الإطلاق، عمل على دفعي، واضح جلي، كأنه وقع بالأمس، إن شجرة أو نهراً أو جبلاً أو مخرفاً[٩٣] أو كلمة أو نظرة أو أسى أو سعادة أو خطراً أو

---

[٩٢] الصالونات **Salons**.

[٩٣] المخرف الطريق في الأشجار.

طرباً أو أقل الحادثات ضؤولة إن كل شيء ينعكس داخلي وكل يوم أحس كل هذا من جديد وفي عنف أعظم"

وربما من هذا الاعتقاد، هذا الإحساس أن وعيه كان يتصاعد نحو الكليات العامة، أنه وصل إلى حالة عقلية يمكن أن يطاق عليها حب بلزاك التعس لأن هذا الباحث المستخفي، وراء البشر، بعيني صقر، الذي تفرد عن كل المؤلفين بأنه أعظمهم حساسية، كانت تستبد به رغبة شديدة فيما فوق الإحساس، وحتى في شبابه جمع معلومات عن المغناطيسية والتنويم المغناطيسي، وبعد ذلك درس سويدنبورغ[٩٤] **Swedenborg** وكان يعتقد في قراءة الأفكار وتنبأ لجول **Gall**[٩٥] ولافاتر **Lavater**[٩٦] عن عودة الاهتمام بهما كالذي يستمتعان به اليوم.

ومجمل القول، إنه لم يقدر من كل مؤلفاته قدراً عالياً غير سيرافيتا **Seraphita** الرائع، ولو أنه قصر عن بلوغ الكمال وهو الكتاب الوحيد الذي عكف على العمل فيه مدة استطالت إلى أعوام، وهذا الكتاب وكتاب البرت سافاروس**Albert Savarus** روايتاه، اللتان تعالجان التأله[٩٧] يغمرهما ضوء باهر الالتماع يتنافر مع مذهبه الواقعي.

---

[٩٤]فيلسوف سويدي ذائع الصيت ومؤسس "الكنيسة الجديدة" (١٦٨٥ – ١٧٧٢).

[٩٥]طبيب ألماني واضع علم **Phrenology** (١٧٥٨ – ١٨٢٨).

[٩٦]شاعر ولا هوبي سويسري واضع علم **Physiognomy** توفي سنة ١٨٠١.

Mysticism[٩٧] إدراك الأسرار بالإلهام.

إنه يعتقد فيهما لأن "المرء يستطيع أن يكتب الأب جوريو **Pere Goriot** في أي يوم أما سيرافيتا **Seraphita** ففي مرة واحدة في العمر".

ومع هذا، يظهر أنه على الرغم من نشاطه، فإنه نكص على عقبيه أمام الموضوعات التي شعر أنها فوق طاقته– وفي خطاب يدلي باعتراف يكاد لا يقدر حتى هو نفسه أن يسير غور مغزاه الكامل.

"إذا ما أويت إلى مضجعي ولم أكن متعباً يراودني النوم، عند ذاك يكون ضياعي، لأن اللحظة التي تسبق النوم مباشرة، عندما يستسلم المرء إلى نفسه وإلى اللانهاية هي اللحظة الوبيلة بالنسبة لي".

هنا حدوده الطبيعية، عندما ينفرد بنفسه أكثر مما يجب، دون نشاط أو حركة، يرجع بلزاك عن طواعيه إلى إدراك عهده إدراكا واقعياً.

-٥-

"اليوم أخذ الكاتب مكان الكاهن ... إنه يعزي ويدين ويتنبأ إن صوته لا تتجاوب أصداؤه في بهو كاتدرائية، إنه ينتشر كالرعد القاصف، في الخاقين، والبشرية قطعية تنصت إلى شعره، وكثيراً ما كانت كلمة أجل شأناً من انتصار ... لقد أصبح قائد جوقة المغنيين في القرن الذي يعيش فيه.

إنها لحقيقة كأن الأمر لا يعدو طاقطس **Tacitus** وكالفن **Calvin** وفولتير وروسو وشاتو بريان وكونستانت **Constant** وستايل **Stael** والآن أصبح الأمر للصحيفة ... لو أن خمسة عشر رجلا من

أولي الموهبة في فرنسا أمكن جمع شملهم تحت زعيم في عظمة فولتير لكانت مهزلة ما يسمى بالدستور، والسلطان المقيم لذوي الكفاءات المتوسطة، وقد أوفت على نهايتها.

وهذا الإدراك لرسالة اجتماعية ازداد قوة في بلزاك بعد أن نيف على الثلاثين من عمره ومهما كان من أمره كمحافظ في ظاهره، فإنه في صميم قلبه كان ثورياً إلى أبعد ما يكون عليه ثوري، وعندما كتب ضد الاشتراكية– وعندما أكد أن نظرية المساواة يندرج تحتها المساواة في العقول وفي البطون، وأن رأس المال يعمل على هربه ذعراً إلى إنجلترا وأن الحكومة يجب ألا تتدخل في شئون الفرد– كان يعجله إلى هذا من جهة، شعور التفوق الذي يلازم رجل عبقرية ومن الجهة الأخرى حجج تلك الطبقة التي كانت تدفعه مطامحه صوبها، ومع هذا فإن البعض الذي يضمره رجل الطبقة العاملة وكبرياء الاستعواض في المغلوب على أمره، يجيئان باستمرار ويسطع التهكم الاجتماعي خلال توليفه في مئات من الأمكنة.

وهو يعلم لماذا يطلق على نفسه مازحاً لقب "دكتور **Docteur**"

– "دكتور في العلوم الاجتماعية والأدواء التي لا علاج لها"

Docteur des sciences socialeset des maux incurables، والسر الذي لا علاج له هو المال خلا وفاضه منه ويجهد دائما في الحصول عليه، وكذلك لمن يملكونه فعلا، ولقد جسر بلزاك وهو أول مؤلف عظيم، غير عاطفي، بعد جوته في واحدة من رواياته الأولى على أن يزعج

شاباً بسؤالين: هل رد على حبه بحب؟ وهل يكون في استطاعته أن يدفع أجرة المركبة في الرحلة إلى المنزل، وفي أثناء فترة من القصص العاطفي عندما كان البطل يستيقظ في حبور في عّلية نظيفة، فيها صورة شعرية للريف، اختار أن يكتب عن منازل كراء الطبقة الوسطى، التربة، وبينما كان معاصروه تذهب أحلامهم لليونان القديمة يقص جوتيه كيف أن بلزاك وقف أمام فينوس دس ميلو **Venus de Milo** دون كبير حماس، ولكن كانت توجد سيدة باريسية أنيقة، تقف قبالة التمثال وهي معجبة به فتناولها بالدرس في تلهف، حتى أدق التفصيلات، إنه كان يحب الطرز السائدة في زمنه، إنه كان يحب باريس.

وكلما ازداد إمعان بلزاك في أن يوجه همه إلى الحاضر وكلما حملته تجاريبه كصاعد، على نقد المجتمع المعاصر كلما اقترب، بصفة قاطعة، من مواجهة عمل معماري كان على ما يظهر غير قمن بحمله، وكان قد جاوز الثلاثين من عمره، وأصبح يدرك المدى الكامل لقوته وإذاً هو يرجع ببصره على عدد من الروايات الفردية التي لا تنتمي إلى بعضها، وقد طرأت عليه الفكرة في أن يضع في مذهب واحد كل عمله الماضي والمستقبل، في أن يكتب التاريخ الخلقي لعصره، وأدرك بلزاك تمام الإدراك أهمية هذه اللحظة، التي كف فيها عن أن يكون كاتب قصص وأصبح يدون تاريخاً، وسرعان ما جرى بهذه الفكرة إلى أخته وهو يطوح بعصاه الإسبانية موقعاً نداء طبل ويهتف "إني أشق طريقي خلال كل العقبات! .. التحية! .. إني الآن في طريق العبقرية!.".

ومهمته هذه، حتى كفكرة، لا نظير لها في الأدب الفرنسي، فإنها أي شيء إلا أن تكون فرنسية وعلى أفضل وجه، يمكن أن توازن بمشروعات ميشيل أنجلو التي تتنافر مع الذوق والتي تركت كلها تقريبا كجذوع، "في دراسات العادات هذه سأعكف على تصوير تفاعل العواطف ومعترك الحياة ... لن يُنسى شيء، لا عمر وحد أو حرفة، لا السياسة أو القانون أو الحرب ... ثم في الدراسات الفلسفية سأقرر أسباب العواطف واتجاه الحياة ... وبهذه الطريقة سأكون قد بعثت الحياة في كل شيء ... بأن أسير بالنوع إلى المثل العليا وأضفي على الفرد صفات النوع"، واستقر رأيه على أنه سيحتاج إلى أربعه وعشرين سفراً من الدراسات الاجتماعية، خمسة عشر منها فلسفية وتسعة تحليلية. "وبهذا سيوصف الفرد والمجتمع والجنس ويقاس كل واحد ويحلل، دون أن يطغى على الآخر– في مؤلف واحد يمكن أن تطلق عليه ألف ليلة وليلة الغرب".

ولم يكن إلا بعد عشرة أن سنوات من هذا الرسم المجمل الذي يصلح أن يجيء في رسالة وقبل موته بسنوات قليلة، أن وصل هذا المشروع إلى الجمهور باسمه وتبويبه الحاليين والعنوان الطموح "المسلاة الإنسانية **ComedieHumaine**" التقليد الهازل لعنوان مؤلف كان في قيمته فوق كل موازنة تهكمية، لم يكن من وضع المؤلف ولكن اقترحه كونت إيطالي كان على سفر، ربما كملحة قيلت على المائدة ليقلدها

بلزاك نفسه بعد ذلك تقليداً تهكمياً، ولكنه يحلق في إبداع في المقدمة التي يضعها في أول أسفاره في إطارها الجديد.

وهنا يربط بلزاك نفسه بالكشف الجديد لسان- هيلير الذي قوبل انتصاره على كوفيه **Cuvier** بالترحاب في آخر مقال لجوته العظيم"، وبما أن مملكة الحيوان على ما يذهب إليه سان هيلير تطورت من شكل وحد بدائي إلى كل جمهرة مظاهرها بتأثير البيئة فعلى هذا يخلق المجتمع أنواعاً متباينة: "الجنود والعمال والسياسيين والتجار والبحارة والشعراء والمتسولين والكهنة يتميز بعضهم عن البعض الآخر كما تتميز الذئاب والأسود وجوارح الطيور وسمك القرش[٩٨] والنسور" إن ما صنعه بوفون[٩٩]بمملكة الحيوان يريد بلزاك أن يصنعه بالمجتمع- وفي الوقت نفسه، يدرك تماماً جميع الصعاب، "ولكن كيف تنظم فاجعة، الثلاثة أو أربعة آلاف من مختلف الناس الذين يتكون منهم مجتمع؟ وفي بادئ ذي بدء لم أر مذهباً لكتابة تاريخ القلب البشري بمثل هذه الوسيلة ... ثم بوضع قائمة بالفضائل والرذائل وقد اخترت أعظم حوادث المجتمع الإنساني أهمية وكونت أنواعاً بضم الشخصيات المتماثلة معاً، فربما يواتيني الظفر بكتابة الفضائل التي غض النظر عنها كثير من المؤرخين".

---

[٩٨]جنس من الأسماك الغضروفية كبير يخشى شره.

[٩٩]عالم فرنسي في الحيوان والنبات ذائع الصيت، عين عضوا في الأكاديمية (١٧٠٧ – ١٧٨٨).

ولوضع تصميم عمل له مثل هذه الأبعاد المعمارية كان يستلزم الأمر شعوراً بنشاط غير محدود، وفقط بمعرفة جلية بالنقد الاجتماعي، كان يمكن أن ينسق في مختلف أجزاءه، ولكن لتنفيذه بنجاح كان يجب أن يكون للمرء دربه سابقة طويلة في اختراع الشخصيات وتدبر أمرهم بمعزل عن مثل هذا التصميم، ونظراً إلى أن الكثير من عمل بلزاك سبق هذا التخطيط المفروض عليه، فقد أنقذه هذا من خطر التزام نهج، حتى جوته نفسه لم يتحاشه، دائماً في إعادته، وفي قائمة يرجع تاريخها إلى الحقبة التي تقع قبل موته مباشرة وضعت عناوين مائة وأربع وأربعين رواية عن الحياة الإقليمية والباريسية والسياسية والعسكرية والريفية تحت أبواب أصلية وفرعية مناسبة "كمشاهد من الحياة الخاصة" ومن بين هذه، ثمان وأربعون، لم تكتب قط، بينما جميع الأسفار الفلسفية والتحليلية، على التقريب، ضاعت.

وبالنسبة للشاعر نفسه، أصبح التصميم الذي يدعوه أيضاً كاتدرائية ومادلينه[١٠٠] وسيلة لزيادة تقديره الذاتي والاستمتاع بغريزته الرياضية والأخذ بأبصار ناشري كتبه.

والتصميم كان ملحمة وافية في تصوره العقلي، لا شيء يبين في أجلي بيان الفرق بين بلزاك وشكسبير وهما كاتبان فيهما خطة مشتركة

[١٠٠] كاتدرائية ماديلين– من أروع كنائس باريس، شيدت من سنة ١٧٦٤ – ١٨٤٢ واتخذت شكل معبد يوناني، وقام بزخرفتها من الداخل والخارج عظام الفنانين.

في وفرة شخوصهما، وفرة غير عادية، إن بلزاك يخترع دائما وشكسبير يكاد لا يخترع أبداً، وبلزاك يبحث عن النوع في الحاضر أما شكسبير فيجده في التاريخ والأدب، وبلزاك يحول معاصريه إلى أسطورة، أما شكسبير فإنه يحول الشخوص الأسطورية إلى معاصرين، وكلاهما ينجح في أجل عمل يمكن أن يضطلع به مصور للبشر: وتفلت شخوصهم من بين أيديهم وتنصرف عمن تبنوهم ويلتمسون مذاهب خاصة بهم وبعد مئات الأعوام تقابلهم مجتمعين وفي رحلات، وفي مغامرات الحب وفي السياسة، وقد أدرك إنتاج الخيال حقيقة ناس كانوا مرة يعيشون وناس سيعيشون في الغد.

ولما كان بأجمعه كاتب نثر، في المعنى المزدوج لمؤلف يجد في الشعر والمسرح شيئين لا قبل له على احتمالها، ويجدهما متحيلين، فقد حقر بلزاك الفاجعة (الدراما) وجهر أن زمانها ولي ولكنه كان دائما يروض يده على الروايات المسرحية لمجرد ما يحدوه من آمال في أنه كان سيصبح ثرياً فجأة بنجاح مسرحي، وهو الذي كان من ديدنه أن يصطنع كل شيء لنفسه دون وثائق أو نماذج، طلب من صحب له أن يضعوا القصائد الغنائية لأجل رواياته ويحث عن معاونين لما كان يدعي أنه الدرجة الأقل مرتبة من فن الفاجعة ويوزع الفصول بينهم ويتحدث في خيال جامح عن أول عرض في حدود مئات الآلاف من الفرنكات.

وجوتيه[١٠١] الذي تمثل مقالته عن بلزاك أحسن مديح قدمه شاعر إلى شاعر آخر ينسب قصور بلزاك كمؤلف لروايات تمثيلية إلى أن فصول الرواية يمكن صياغتها مرات لا نهاية لها، بينما هذا لا يكون مستطاعاً فيما يتعلق بمشاهد فاجعة، وهذه الملاحظة ذات المغزى ترجع بنا إلى مجموعة الشرائط التي كان يمكن لبلزاك أن ينتج في ظلها، وقلقه الدائم وعكوفه على الكتابة تحت ضغط مرتفع مستمر وحركة السرعة والإيقاع **tempo agitato** التي كان يتطلبها نمو مواهبه ومزاج ناري تضاعف الحاجة شدته، كل أولئك يتعارض مع السكينة التي تلازم تأليف مسرحية الفاجعة لأن مؤلفي الفاجعة والنحاتين على وجه عام، سيقيمون الدليل على أنهم أكثر استرواحاً من المصورين وشعراء الملحمة والموسيقيين.

-٦-

لو أنه كان رجلا هادئا، ما كان يمكن لبلزاك أن يصبح مهرج بني الإنسان، ولما كانت سرعته وإيقاعه يوازيان سرعة وإيقاع العصر الذي كان يصوره في كتبه فعلى ذلك كان يحمل بين جنبيه الحمل والأسد والشاعر والأمير والطريد وسمح لهم جميعاً بحرية النشاط داخل حدود عقله، وحتى دون برهان محدود تدعمه الوثائق فلا معدي من أن يستنتج كل قارئ أن بلزاك كان مؤلفاً ذا أضداد عاطفية بارزة، ولكن لدينا الوثائق التي تقيم الدليل على هذا.

Gautier[١٠١] شاعر فرنسي وناقد وروائي (١٨١١ – ١٨٧٢).

والمظاهر القاتمة للخليقة البشرية التي كل منها صفر اليدين هي الحسد والجشع والمكر والدسيسة، ولقد نحاه عن ذلك كله روح مجانة شاع فيه، ولم ينصرف عنه إلا نادراً، ويقص جوتيه- "كان ينفجر هذا المرح الصاخب، لأقل استفزاز، ويهز صدره العريض، وقد يرتاع الجبان ولكن كان على كل شخص أن يشترك فيه، وفي هذا لم يكن تفكيره يدور في التمثيل للمقعد العلوي، لقد كان يدفعه نوع من النشوة الداخلية في ضربات مسرعات، تصحبها تأثيرات مضحكة أشد الإضحاك، وفي حناقه ليست يسيره، يصور على الحائط الخيالات الجنونية التي تتراقص في الغرفة المظلمة **Camera obscure** في عقله" وهذا المراح، الذي ورثه عن سلفه من الزراع، كان نتيجة لنشاطه الهائل الذي كان دوماً يبعث بمشروعات جديدة للمستقبل، وقد هتف إلى صحبه على المائدة "أتم أولا المسلاة[١٠٢] العظيمة ثم المقالة عن الفضيلة، ثم قرابة خمسين فاجعة، فثروة عظيمة فزواج فطفلين، لا أكثر، إن أثنين هو ما يصلح تماماً للمقعد الخلفي في المركبة".

وحاوره جوتيه قائلا "نعم، وفي ذلك الوقت تكون قد بلغت الثمانين".

"ماذا، ثمانين؟ كيف يتأتى ذلك- إن الرجل لا يكون حقاً في شرخ شبابه إلا حينذاك".

---

[١٠٢] الكوميديا.

هنا خالق القصص المضحكة **ContesDrolatiques** اللعبة الجبارة التي كان يستطيع دائماً أن يتحول إليها بعد كدح شاق في الروايات.

هذا هو التراث الساذج عن أبيه الذي كانت وفاته بعد أن جاوز الثمانين، كما نستطيع القول، نتيجة سوء تفاهم ولم يكن يوجد شيء يشيع السرور في بلزاك أكثر من الخواطر الماجنة– مجوناً مبتذلا كأولئك التي تكون للمجانين والأطفال، ولقد جرى على توزيع كلمات المرور بين صحبة الذين كان عليهم أن يقولوا للبواب ليظفروا بالدخول "إن الخوخ قد نضج" أو "إني أحمل دانتلا بروكسل".

ثم يضحك كأنه نفر[١٠٣] من الجن ثم أوجد نوعاً من النقابات الأدبية "الحصان الأحمر **Le Cheval Rouge**" بكل صنوف الفرائض الغريبة والإشارات السرية للمديح العلني المتبادل، وولائم يسودها الوقار، كان مآلها أن فرسان الطبقة أعوزهم المال لها.

وعلاوة على هذا، كان سعيه وراء الثراء لا أكثر من لعبة بالنسبة له، ولقد هتف خلال مشاريعه "ماذا؟ ثلاثون ألفاً من الفرنكات– وهل ذلك كل ما هناك؟ إن هذا المبلغ سيذهب على التحديد ثمناًللزبد والفجل! ... أذكر لي بيتاً متوسط الحالي، إذا شئت، لا ينفقون فيه ثلاثين ألفاً من الفرنكات ثمناً للزبد والفجل، وأذكر عرضاً أني على استعداد أن أعيش

---

[١٠٣] النفر يقع على المفرد والجمع.

بتسعة دراهم كل يوم، وكان على تواضع جم وصبيانيا فيما يتعلق بعمله ولا يتظاهر بأي سلطان حتى عندما واتته الشهرة وبعد الصيت وكان يظهر للملأ ما هناك من مواهب جدد ويعجب بفكتور هيجو على الرغم مما كان بينهما من فوارق عظيمة، وعندما كان يذهب في رحلة، لم يكن يفشي أبداً عما إذا كانت هناك سيدة وحتى بعد مائة عام لم يكشف كل ما بذل من استبطان وتقصى الستار عن اسم تلك السيدة من الطبقة الوسطى التي أنجب منها غلاما، نعم، إنه كان ينطق بالحق عندما اعترف مرة لصديقه "إن قلبي دائماً يسيطر على حياتي، إن ذلك سري الذي احتفظ به في عناية" وفي إحدى صوره الشمسية الأوليات، يبسط يده العظيمة البيضاء فوق قلبه وكأنه يعمل على توضيح هذا.

ومع هذا فإنه الرجل عينه الذي يكتب في منهج تحت اسم مستعار: "أقرأ في مكان ما أن الله وضع آدم في العالم وقال له "إنك إنسان" ألا يمكن المرء أن يقول على هذا النمط إنه وضع بلزاك في العالم بهذه الجملة: "إنك الرواية"؟ ولقد هتف وهو في الثلاثينمن عمره أنه سيعد بين عظماء الرجال في وطنه: وكتب وهو في منتصف سنيه الأربعين، يفصح عن دخيلة نفسه "إن أربعة رجال سيكونون ثد أثروا أعظم تأثير في هذا النصف الأول من القرن، نابليون وكوفيه **Cuvier**[١٠٤] واوكتل **O Connell**[١٠٥]

Cuvier[١٠٤] (١٨٦٩ – ١٨٣٢) عالم في النبات والحيوان واضع علم التشريح المقارن **Comparattve** وعينه نابليون الأول مستشار دولة سنة ١٨١٤ وكان خصماً لنظرية التطور التي نادى بها لأمارك **Lamarch** وسان هيلير **Saint- Hilaire**

وأود أن أعد رابعهم فالأول ... طعم جحافل برمتها بفبروسة[١٠٦] والثاني اختار الأرض كرفيق حياته والثالث أندمج فيه شعب، أما أنا فأكون قد حملت في رأسي مجتمعاً بأكمله".

وإلى جانب هذه الثقة العظيمة بالنفس كان يستحوذ عليه تواضع بلغ من أمره أنه رفض ذكر مقعده للمجلس القومي قائلا: "إن من يريد أن يعطيني صوته، كائناً من كان فيجب أن يحكم من عملي عما إذا كانت حقيقياً بهذا الشرف" حتى كبرياؤه كانت أعظم من إحساسه بالعمل، لأنه بينما أخذ على عاتقه بيع المقاعد في العرض الأول فإنه أبعد المروجين وحال هذا دون نجاح مسرحيته، وحدث أحيانا أن المبالغ كانت دون ما يستحق وقد رفض بعد إلغاء إحدى مسرحياته تعويضاً بلغ مقداره خمسة آلاف من الفرنك بحجة أنه تمكن من كسب خمسة وعشرين ألفاً في نفس الوقت.

ومظهر ثان لجموحه كان صراعه الدائم بين الواقعية ومذهب في الخيال يعده بالكثير في المستقبل، وبهذا يجرده من الحاضر وأولئك فقط الذين يفوتهم فهم الشاعر والمجنون يمكن أن يأخذ العجب منهم من أن خالقاً عظيما كهذا أمكنه أن يحكم على العالم هذا الحكم

---

[١٠٥] يطلق عليه لقب "أعظم محرض على الثورة في إيرلندة" وقام بنشاط عظيم في البرلمان الإنجليزي الذي كان عضوا فيه لتحسين مركز إيرلندة، وطنه (١٧٧٥ – ١٨٤٧).

[١٠٦] Virus – جرثيم رشيح (ينفذ من الروائح البكتيرية ولا يرى بالمجهر العادي).

الخاطئ بالنسبة لنفسه بينما كان يفسره ذلك التفسير الدقيق للأخرين، وهذه التصورات الجامحة كانت دائماً تتصل بالمال والثروة، ولقد جاء عند انتصاف الليل إلى صديقه لورنز **Laurens**.

"انهض يجب أن نرحل سراعاً"

"أمعتوه أنت؟."

"أسرع، يجب أن نرحل إلى المغول الأعظم، إن هذا الخاتم، الذي أعطاني إياه همر **Hammer** أثار في السفير التركي أعظم دهش مساء أمس، "أتعلم أنك تتختم بخاتم النبي؟ لقد سرق لمائة سنة خلت، من المغول الأعظم وقد وجد من يعيده بأطنان الذهب والجوهرة، وكان من العسير حمله على الإقلاع عن القيام بالرحلة– هذا الرجل عينه الذي كان يعرف جميع الطرق الشائنة التي يسلكها المرابون ومقرضو النقود ومرة أخرى عندما كان يكتب قصة عن رجل من البندقية مكفوف لا يملك شرور نقير يستطيع أن يكشف عن الذهب وراء الحيطان، حاول في جد تام أن يقنع صحبه بأن يسافروا معه بحثاً عن الكنوز المدفونة التي خبأها توسان **Youssaint** الهايتي ولكن للجد العاثر كان المال الذي يلزم لتأجير المركب لا جود له.

وابتاع منزلا صغيراً مغني الجاردي **Villa Les Jardies** على مقربة من باريس على أرض لا شجر فيها، حارة واستقر رأيه على أن يزرع أشجار أنا ناس هناك في منازل تدفئة طويلة، وكانت الثمرات ستباع

بخمسة فرنكات لكل منها بدلا من عشرين وعلى أساس محصول يبلغ مائة ألف من هذه الثمار فإنه سيغل له نصف مليون، وخمس هذا المبلغ فقط هو الذي ستمس الحاجة إليه لتسديد التكاليف، ماذا فعل بلزاك بادئ ذي بدء؟ لقد عثر على حانوت في أحسن حي في باريس وأجمع رأيه على زخرفته أخاذة باللونين الأسود والذهبي وأن يكتب بالدهان عليه: أناناس الجاردي، وكان يدرك أحيانا غلطته الأساسية وعندما قالت له امرأة في البندقية وهي تضحك "إنك دائما تحسب أحلامك، خطأ، حقائق" أجاب في جد تام "في هاتيك الكلمات القلائل أصبت موطن أخطر سر في حياتي".

ومع هذا ألم تكن هذه الساعات وهذه الأسابيع من رسم الخطط ومداعبة الأمل أوقات سعادته؟ ماذا غير هذا قدمت له الحياة من أسباب الاستمتاع؟– وقصاري القول، إنه فعلا يسعى إلى الاستمتاع.

ويكتب وهو في الواحدة والأربعين وهو يُسر: "لم يقدم لي أحد التهنئة أبداً، بيوم ميلادي إلا السيدة دي س. **De C.** في مناسبة وحدة، وإني دائماً حزين في ذلك اليوم، إن أمي لا يهمها من أمري شيء وبما أني أكثر النقلة على الدوام فقد اقترحت على أختي ألا نتبادل التحيات بعد الآن، وعلى ذلك لم يكن يوجد في الواقع أحد يذكرني .. ومع هذا فإني أهمس بهذا، بصفة خاصة، وفي أذنك بأني أفضل كثيراً السعادة على الشهرة وأتخلى عن كل أعمالي لمجرد أن أكون سعيداً كالكثير

غيري ممن رأيتهم، وفي مثل هذه اللحظات الجادة نستمع مرة أخرى إلى نغمة الرجل الذي كان يمكن أن يعيش للمتعة والذي اعتقد أنه يكتب لمجرد الحصول على الثراء عن طريق الأدب.

وبعد الخامسة والثلاثين من عمره، أوصله صيته المتزايد إلى عشرة رجال السياسة والفنانين وإلى مائدة روتشلد ولقد استقبل في حفاوة بالغة في روما وميلان وفينا وعندما مر خلال برلين عجل السفير الفرنسي بالحضور لتقديم أول زيارة وهو شرف لم يسبق أن قدمه أي سياسي ألماني، إطلاقاً إلى فنان ألماني، ومع هذا، ففي باريس لم يكن في نظر القادة من الروائيين، بذي خطر عظيم، فهو لم يكن مزهواً أو منعزلا في ترفع، عن المجتمع أو خليقاً أن يكون المعلم، لقد أفرط في دنوه من الحياة وفي مديح التحقير لبلزاك، وقد وضعوه أنه "أعظم مؤلفينا خصباً"، حاول الأدباء– تماما كما هو دينهم اليوم– أن يقصوا رجلاً كان يتفوق عليهم في القوة والكدح والإخلاص.

وعندما كان يستضيف أصدقاءه ويطلعهم على كل كنوزه في الغرفتين باهظتي التكاليف، اللتين أعدهما في بذخ بحرير الدمقس والبسط الكثير من اللون الحمر والذهبي وعندما كان يقدم وجبات العشاء الأنيقة التي حوت كل صنوف اللذائذ ولكن دون خبز، حيث كان يعب من الخمر أكثر من أي فرد غيره ويلنهم خمساً من ثمار الكمثرى، وعصيرها يتساقط فوق ذقنه الثقيلة– كما كان آباؤه يفعلون– نعم، في مثل تلك الأوقات، كان بلزاك،

على طريقته الساذجة، سعيداً وكانت تزداد سعادته وهو يصغي إلى الموسيقى، وفي زمن روسيني **Rossini**[١٠٧] لم يحدث كثيراً أن أي شخص في باريس كان يستطيع أن يقدر بتهوفن ومع هذا فإن بلزاك لم تحده الغيرة من أي فرد آخر وكان باستمرار يعبر في الرسائل والروايات عن إعجابه بالسيمفونية الخامسة **Fifth symphony**.

وكان من دواعي زهوه أن يتسامر، ليس في الواقع كمتحدث ولكن في حيوية وروح بالغتين حتى تصبح المحادثة، منولرجا، ويقص جوتيه– "عندئذ ينسى من أين بدأ وهو يقفز من حكاية إلى فكرة ومن عادة إلى مشهد، وقد استعرت عيناه وتغير صوته عند كل وقع في الروع وأحياناً كانت تجئ ضحكته الرائعة عندما يفكر في السخافات لنفسه قبل أن يأتي عليها بالوصف للآخرين، وبهذه الطريقة أعلن وكأنه ينفخ في أبواق، بداية رسومه الساخرة ورسومه المجملة وسرعان ما حمل مستمعيه بعيداً معه، وضحكته العريضة وهي تصدر عن شفتين إباحيتين كانت ضحكة رجل شبيه بطفل تدخل التسلية إليه فاجعة اللعب البشرية تحركها خيوط، ولا يستطيع أي شيء إزعاجه لأنه يلم بكل شيء ويرى على الدوام جانبي الموضوع، ولم يوجد موقف أو حاجة أو كلال أو استبعاد أو حتى مرض كان من شأنه أن يكتب هذا المراح العظيم".

ومع هذا فإن بلزاك الذي كانت حياته سعيًا مستمراً وراء الرقي

---

[١٠٧]ملحن أوبرا إيطالي عظيم (١٧٩٢ – ١٨٦٨).

والروعة والمال كان فقط سعيداً حقًا، عندما هجر ندواته ومقاصيرهوأرائكه وأوانيه الصينية إلى غرفة العمل البسيطة التي عزلها عن الضجيج الخارجي بحشيات وبهذا أعادها بطريقة مصطنعة إلى السموق الذي كانت فيه عليته، وفيما عدا أنه أصبح الآن يحمل أدواته على قلنسوته وهو في سمت أمير: مقصًا وقاطًعا للورق من الذهب، يتدليان من سلسلة من صنع البندقية! ويكتب حينذاك "إن حياتي السرية الجميلة تغزيني عن كل شيء، لتعروك رعدة لو أنك أحط علماً بكل شدائدي ولكني أنساها كنابوليون في ميدان القتال، وعندما أجلس إلى مائدتي الصغيرة، فعند ذاك أضحك، إذ يستحوذ علي الرضى التام".

ويجمع في آن واحد شمل رسالته وعاطفته في جمل جاءت في خطاب له، رائعة: "إن رؤية قصيرة قصر الحياة والموت، عميقة عمق

(١) صالونات

وقد طلب بلزاك إلى الشباب من صحبه "يجب أن يعيش الفنانون دون نساء على الإطلاق وعندما حاولوا أن يدحضوا قوله بالأمثلة، صاح "كان يمكن أن يؤدوا أشياء، تختلف الاختلاف كله، دون نساء!، يجب أن تروا نساءكم لا أكثر من نصف ساعة كل سنة والخطابات يسمح بها، بما أن في ذلك تحسين للأسلوب"، ولكن عندما دخل تلاميذه غرفة الديوان المزخرفة وجدوا أن المصورة الوحيدة هناك مصورة محفورة نقلا عن "ليندا **Leda**" لميشيل أنجلو أو كان عليهم فقط أن يلقوا النظر

على صفحات "حكايات مضحكة" أو يطالعوا وجه الأستاذ ليدر كوإدراكاحسياً، سكيراً عربيداً وإباحياً، على النقيض من قلنسوته، على منهاج رابليه **Rabelais**[١٠٨] حقاً، إن بلزاك كان يرى النساء لفترات أطول من نصف ساعة.

ولكنه كان مقتصدا في علاقاته بالنساء، أكثر كثيرا مما تحملنا صورته و "حكاياته **Contes**" و "عبق المرأة **Odeur de femme**" في رواياته، على الاعتقاد به: لقد خصصت لياليه، مجازاً وحرفياً للعمل وإنك لتراه في الصباح، في ميدان قتاله مضجراً في انشراح، شبعان مرتوياً، صافي الذهن وقد أشاع فيه النصر الرضى والرزانة، لتدرك أن ما كان موضع رعاية رجولته هو عمله، ولم يتخذ أبدا وضعه[١٠٩] كاهن الفن وكذلك في حياته العملية، لم يكن قديساً: لقد كان يأخذ ما يجئ في طريقه وكانت له مغامرات مع دوقة وامرأة من الطبقة الوسطى ولكنها لم تدم طويلا ولم تكن في عاطفة عنيفة، إطلاقاً، وكان ينقص هذا الرجل الذي تلازمه دون انقطاع حالة نفسية هوجاء، شيء تافه– الوقت، وكان يمكن الوصول إلى الحب ومتع المائدة الفينة، بعد الفينة، لا غير، وبهذا جعل من الحب، والحب دون سواه قصصاً وكان يطيب له أن يعالج شدة ميله للعمل كاستشهاد للحواس وتصوير هذه السعادة كتضحية.

---

[١٠٨] كاتب فرنسي ولد بين سنتي ١٤٨٣ و ١٥٠٠ وتوفي في سنة ١٥٥٣ وهو واضع مؤلف **Gargantua** ومن بين ما اشتهر به، قصصه وخاصة القصص التي تنافي الأدب.

[١٠٩] **Pose**.

ومرة واحدة في حياته، ومرة واحدة فقط، خبر الحب في بساطة دون استعراض للعواطف أو المداجاة وقد تقبله في عرفان للجميل جعله بمعزل عن الأغراض أو الخدع، كان هذا في ريق شبابه، لأن في هذه المرة كان بلزاك بكليته يتراجع وكان بكليته الشاعر وقد استسلم لامرأة في الخامسة والأربعين، كانت جدة أو يمكن أن تكون جدة لابنتها التي بلغت العشرين من عمرها والتي حسبوها في القرية خطيبته، ولكن واحدة من طبقة النسوة اللواتي يؤثرن في الروع واللواتي وضعهن بعد ذلك في كتبه، لم تدخل في حياته، وهذه المرأة هي الوحيدة التي حفظ لها الحب بعد موتها:

Nuncet semper dilecta

الآن وعلى الدوام المحبوبة

ومدام دي برني **Madame de Berny** التي كان أبوها موسيقياً ألمانياً وأمها عضواً في طبقة الأشراف الفرنسيين الأصاغر، كانت تعيش مع زوج كهل مكفوف جزئيا وتسعة أطفال في ضيعتهم الرائعة، التي اختلف إليها بلزاك وهو في الثامنة والعشرين من عمره لزيارة صديقه، ابنها، وعيناها السابحتان وحاجباها الشهوانان الثقيلان وشفتاها اللتان استسلمتا في غير رضى، كل أولئك كان ينم عن عالم بأكمله من التشوق والإخلاص والتسامح، كالذي يجلبه الشقاء في الحب، للنساء الناضجات، وبالتأكيد كان ليعمل على أسر الشاب، أساريرها التي تهرم دون أن تحب وفيها تعبير عذراء باحث، والاستسلام الذاتي الذي يكون

لأم وخاصة لأنه وجد هنا لأول مرة، امرأة على حظ من التعليم، تراعي الناس مشاعرهم، وأحسنت تنشئتها وتنتمي إلى تلك المجتمعات التي كان تزعج في غموض الفتى الهابط من الأقاليم.

وفي بداية الأمر، استنكرته، ثم لقى قبولا وبينما الأوراق التي تأخذ الاصفرار على هذه الساق تهتز لآخر مرة فإن براعيم الساق الأخرى تتفتح.

وتمازح الاحترام والرغبة معا ووجد الشاب الذي لا أم له أمرين من الأمور التي يتشوق إليها يتحققان في الحال، ولقد عرف تمام المعرفة فحوى ألفاظه عندما كتب بعد ذلك: "إن آخر حب لامرأة هو فقط القمين بإرضاء أول حب لرجل في مقتبل العمر".

إن هذه المرأة قامت بتنشئة وتعليم بلزاك وعملت على مظاهرته[١١٠] في أعماله وفي فشله، بالمال ومحض النصح، ومن طبيعة إخلاصه، رأت، مقدماً، قدرته العقلية وأسدت إليه طوال عشرين سنة ما في نقدها الرصين، الذي لا هوادة فيه، من نفع وما انضمت أبداً إلى هتاف الأوشاب، ولكن كانت دائما تبرز للمديح والثناء تلك العناصر في عمله التي كانت عظيمة حقاً، ومع هذا، فإنه بعد فترة من الغيرة عندما تحول الشاب الممتلئ نشاطا صوب لداته، فإنها تخلت عن مكانها لنسوة يصغرنها سناً، ولكن شعوره العميق بعرفان الجميل لما صنعته لم يبارحه قط: "لقد خلقت قلبي ... وانتقادها يؤدي عمله، إن النقد يكون على

[١١٠] معاونته.

درجة فائقة من الحسن عندما يصدر عن صديق ويؤمن به المرء ولكنه لا يترك جروحا ... إن صداقتي من الجرانيت وبمجرد أن تتأصل جذور شعور في، فلا شيء يكون أكثر دواماً منه، لقد بلغت الستين، إن الآلام التي رزحت تحتها قد غيرتها حتى لا تستطيع أن تعرفها وقد تضاعف حبي"، وبعد موتها بزمن طويل، هتف وراءها: "كان هذا المخلوق أكثر من أم لي، امرأة صديقة كما يمكن أن يكون إنسان لإنسان آخر، ويمكن تفسير هذا فقط بأنه إرادة الله، وفي الأوقات التي يشتد فيها الضيق كانت تعضدني بكلماتها وأفعالها وإخلاصها، وإذا كنت قد بقيت على قيد الحياة، فالفضل لها وحدها، إنها كانت شمس حياتي الخلقية".

وفي الواقع كانت الصديقة الوحيدة في حياته التي تستطيع أن تتيح للفتى الدخول بين تلك الزمرة من أولى الألقاب التي كان يبرح به الشوق إلى غشيانها، ولكن لأنها كانت على ذكاء وعليمة بخصال هؤلاء الناس فقد حذرته من المغالاة في تقديرهم- بلا جدوى، "إنه شر مستطير أنك على هذا القدر من الغرور، لن يعطيك واحد من هؤلاء الناس ثلاثة آلاف من الفرنكات لو كنت في حاجة إليها.

إن أولئك النسوة منكرات للجميل مبدئيا، ساعيات لما فيه نفع لذواتهن، ماكرات متآمرات لأنهن يشعرن أنهن ضعيفات ويحقرن أي نفر ليس من دمهن! ... كيف يتسنى لك أن تظل نقس الذيل في غمرة مثل هذا الانحلال الخلقي؟"

وكان في باريس ولم يكن في وسعه الإصغاء أكثر من ذلك وكلما كن أكثر تقدماً في العمر ومن أولات المراكز المرموقة، وكلما أمعن في أن يكن "مهذبات" كلما كان بلزاك أسرع في الوقوع في حبهن، هناك كانت توجد دوقة إبرانتية **Duchess of Abrantes** ويمكنها أن تسرد عليه حكايات لا عد لها عن نابليون وأيضاً بين حين وآخر تختبر الشعبي ذائع الصيت في حالة يتوثق فيها القرب **dansl'intimite** وكانت توجد المركيزة دي كاستري **Marquise de Castries** وهي وقد كانت نصف مشلولة تستقبل دائماً منحنية، وهي "الجسمان الأنيق" كانت تصبو أيضاً إلى تزين ندوتها[١١١] بالروائي ووعدته بكل شيء يمكن أن تعد به امرأة حنكتها التجارب وغوته إلى أحد تلك الأمكنة التي ترتاد لنهل المياه المعدنية وللاغتسال، ولو ظانه لاقى عنتاً لا نهاية له في الحصول على المال، وأتى وسقط من المركبة وسعى يعرج بين الغاديين والرائحين الذين يأخذون بالأبصار وظل يلهبه الشوق ولكن عندما أعلنت رغباته كرجل، عن نفسها، ضحكت منه.

ولقد حدث مثل هذا الصنيع مع كونتيسة بولندية، وامتناعه عن تركها إلا بعد أن أتاه الظفر بها أضفى على حياته العملية التي تسترعي النظر، نبرتها الحاسمة، وفي ضيعة نائية في يوكرانيا كانت تجلس الزوجة الشابة لترى ريفياً كهلاً استطاع بما كان عليه من يسار أن يغنم واحدة من

---

[١١١]صالونها.

سلالة أسرة أصابتها الفاقة، وعلى الرغم من أنه كان لها ابنة صغيرة سويسرية ومنزل كان للقدامى من سلفها، وعبيد الأرض[١١٢] فإنها كانت تعاني الضيق، وكانت تعكف على قراءة الروايات، بطبيعة الحال من باريس، ولقد وصلت إليهم بعض الكتب من وضع ثم السيد بلزاك الذي كان يعرف كيف يكتب عن الحب، لو أنها بعثت إليه بخطاب، فهل يُعنى بالإجابة؟ ولكنكيف؟ ... بالاسم؟ مستحيل. وعلى ذلك أرسل إليه إطراء دون توقيع بخط المربية السويسرية

"إن عبقريتك تظهر لي وقد بلغت الذروة، ولكن يمكن أن تكون إلهية، إن الحق وحده هو الذي سيهديك السبيل، إني أراك بعين البصيرة، وإني أراك سلفاً، هذه هي موهبتي الوحِدة، إنها خالصة وقوية، إن مصدرها إلهي وإن صدقها مقدس ... إن كلي روح ليس لي إلا فضيلة واحدة: الحب، إن حبي أبدي ... وعندك، إني الغريبة وسأظلها طوال حياتي، لن نتقابل أبداً" — "حاشية: إنا لنرجو أن تحيطنا علماً بوصول هذا الخطاب على ورقة معينة تحمل حروفاً تمثل لغزاً بالأحرف الأولى من اسمك".

هل وجد رجل كان التقرب إليه في شاكلة هذه الحالة النفسية؟ هنا نجد الحماقة التامة التي كانت عليها سيدة من أولات الألقاب وتملك الضياع، استبد بها الضيق ليس فقط في بودوليا[١١٣]، ومع هذا، ماذا يحث؟

---

[١١٢] Serfs

[١١٣] بولونيا القديمة Podolia

لقد أثير المؤلف، وكتب بلزاك إلى "الغريبة" خطاباً أوفى على الغاية في الجمال وحوى الكثير من الاعترافات القيمة، وقد كتبت مجيبة، عن طريق المربية كذلك، والتزمت نفس الحذر وطلبت إعدام كل الخطابات أما من جانبها فقد اختزنت كل قصاصة (وهذه هي الخدمة الوحيدة التي قدمتها إيفا هانسكا **Eva Hanska**).

وسرعان ما أصبحت ناصحته وبدأت تتولى أمر الشاعر وتوجه إليه العَذْل واللوم من حدود أسيا، وهي أبداً ذكية الفؤاد، وأبداً التي تقدر في إخلاص، عبقريته؛ والسيدة التي تكلف بأمور الدنيا؛ الفنانة؛ الأرستقراطية؛ العاطفية، التقية، رقيقة الشمائل، الخجول، العنيفة، الغيور، القاضية، المنقذة ومحظية على الدهر– أوزه[١١٤] في بلادتها وفي الرد عليها، أرسل بلزاك أسفاراً بأكملها، وذكر كل شيء كان يقع له، وكل مشروعاته، وشدائده، وتشجيعاته وانتصاراته وكانت رسائله تزخر بأحاديث باريس وبيانات عن ديونه ومشاجراته مع ناشري وأوصاف أقصى ما يطمح إليه من مشروعات– وفي نفس الوقت يدأب على كسب ودها وهو أبدا المعجب الذي يسعى لنيل حظوة عظيمة **Grande Dame** ليست لع معرفة بها، منحته اعترافاً بفضله، جزءاً من قلبها، وفي هذا المجال فقط، كما حدث مع أولى عشيقاته، وتفجرت كل عواطفه المكبوتة، ولأنه لم يكن يعرفها فقد حسبها امرأة جامحة الأهواء، هلا تحطم أول مقابلة لهما كل شيء؟

---

[١١٤] تطلق كلمة **Goose** على الشخص البليد الأحمق.

وبعد سنة ويوم تواعدا على مقابلة في سويسرا مع زوجها كطرف ثالث، ونزهة في نيوشاتل وهنا تتبدد أوهام إيفا عن الرجل القصير، البدين، غير الأنيق، وهو من الجهة الأخرى كان واقعيا الآن لأن الخدعة كانت على وشك أن تصبح حقيقية شديدة في عنفها، ولم يكن يتوقع أو يلتمس قدرة عقلية أو مغامرة قصصية، إن ما كان يصبو إليه هو امرأة سمراء متناسقة التكوين إباحية وهذا بالطبع ما استطاع أن يجده: إن الأمر الأساسي هو أنها تبلغ من العمر سبعاً وعشرين سنة وأنها على جمال عجيب وأن لها أبدع عينين سوداوين في العالم والبشرة التي تأسر اللب التي تكون لشقراء، ويدين صغيرتين والهتين وقلباً أتم السابعة والعشرين من عمره فيه كل البرء .... ولا أذكر لك شيئا عن ثروتها الهائلة ... وتحت ظل شجرة بلوط عظيمة تبادلنا أول قبلة حب مختلسة ثم حملتها على أن تقسم الانتظار ولقد أقسمت أن تقيم على العهد قلباً ويداً (إلى أن يموت زوجها).

وإذا وضع المرء صورتها جنباً إلى جنب مع هذا الخطاب الذي بعث به إلى أخته، فإنه يكون من الواضح لماذا صادف اهتمام الخلف بنساء بلزاك، على الدوام، تقريباً، خيبة أمل، لقد كان أنفها مدبباً، ومنقلباً إلى أعلى وهو أنف، في تسامح يدعو إلى أعظم رثاء، وفمها كان شبيهاً بالوصف الذي ساقه عن يديها، وعيناها كانتا باردتين، غادرتين وفيهما حقد وشنآن.

وكان يتهدل شعر غزير، أعتنى به أجمل عناية، على عنق كان في الغلظ مثل عنقه تقريباً، وكان يوجد الكثير من العضلات البيض فوق الصدر والكتفين، ولقد تاح له أن يصف فمها بعد ذلك بأنه "جد شهوان وأحياناً يوحي بالشؤم" وعندما يتحدث عن نغمة الطفل في سوتها وعن النبرة السلافية فيه، نرى الفكرة التي لا إرادة فيها، عند رجل يأخذ نفسه على التقشف وظلف العيش، عن التهذيب ونحيط علمًا ببلزاك الذي تجتمع في حياله الأرومة والثروة لتكملة الصورة التي تتملى بها عيناه وهما تنعمان بالتطواف باحثتين.

ومن الواضح، من صورتيهما ومن "الحكايات المضحكة" التي وضعها، أن هذين النوعين كان يتلاءم الواحد مع الآخر ملاءمة تامة، ولكن بلزاك إرتاه عندما علم أنها قرأت أيضا تلك الحكايات، وهي التي كانت توجه إليه اللوم على "شخوصه التي تثير الاستفزاز" إن هذه حقيقة تبصرنا إلى أبعد عمق باستمرار تلك الخدع التي فرضها على نفسه، وخطاباته إلى إيفا مع غزارة مادتها ونضرتها وفيضها بإنسانية مكتملة، فإنها عندما يتحدث عن حبه، تجلب أعظم ضيق ويكتب بعد ذلك: "لقد رأيتك واتحد جسمانا وروحانا ... وتملكتني جميع الرغبات التي يمكن أن تلهم بها امرأة محبة، وإذا لم أخبرك بأي حماس كنت أتشوق إلى زيارتك لي في الصباح، فاللوم يقع على مسكني التعس".

واستطال الأمر على هذا النحو أعواماً طوالاً، وتبعها إلى فينا، وهنا

ظل على الحدب عليها عندما كان متفاها يدهنان، وحل بضيعتها حيث أدخلا الخديعة على زوجها، وقد استمتعت بصيته علناً وفي صمت كانت تشيع البهجة لصنوف الرعاية التي يبذلها هذا الزارع القوي الذي عاش فيها سلف من الزمن دون نساء تقريباً، وبينما كانت لا تخامرها فكرة بالتخلي عن مكانها الآمن لآجلة، فقد أبقته في حيازتها بكلمات لم ينسها أبداً: "لا تربط نفسك بأي فرد، إني في حاجة إلى إخلاصك وإلى قلبك بأجمعه".

ويكتب: "قبل أن أستطيع الرحيل، يجب أن أعد أربعة أسفار للطابع وأحصل على تقويم[115] لخمس تذكرات، وأسدد ثمانية آلاف من الفرنكات، والأسفار الأربعة بها مائة ورقة أو ست عشرة صفحة، مائة مرة ويجب أن تراجع كل صفحة منها من ثلاث إلى أربع مرات".

وتكتب: "من الجلي أن نسوة أخريات يستبقونك في باريس أو يجب عليك أن تغنم لنفسك أربعة عشر يوماً من السعادة في جينيف"

ومرة، عندما تعرض المرأة الغنية مبلغاً زهيداً على صديقها الذي شح لديه المال، فإنه يجيب في ضغن لاذع: "ألف شكر لأجل قطرة الماء التي تقدمين، إنها كل شيء وهي لا شيء بالنسبة لي، إنك ترين ماذا تعني ألف عندما يكون المرء في حاجة إلى عشرة أضعاف هذا المقدار كل شهر".

---

[115] يقال قوم السلعة تقويماً.

وقد اطرد حبه في الزيادة بالتدرج، على غرار رواية بالنسبة له ويمكننا أن نرى كيف أنه فرق بين أحاسيسه كشاعر وعواطفه التي يبثها في رسائله بعقد موازنة بين فكرة بعينها كما تكتب لأجلها أو لأجله.

-٨-

وبعد سنوات تسع من الخطاب الأول مات زوجها، هل تطير إليه لقد بلغت الآن السادسة والثلاثين وأصبحت ذات بدانة، وكان يشرف على الأربعين وكان يشكو من شعره الذي اشتعل فيه الشيب منذ سنين، وهو وقد بلغ من بعد الصيت، القمة، كان مرة أخرى يواجه الإفلاس، في سن الثلاثين كان مديناً بمائة ألف من الفرنكات وقبل بلوغه الأربعين ربا[١١٦] الدين إلى مائة وسبعين ألفاً.

ومشروعاته ومعالجة النهوض بها كانت تشبه أولئك التي تكون لمغامر في السندات ومع هذا فإن مشروعاته لم تتعد، على الإطلاق تقريباً، مرحلة إعمال الفكر فيها، وفي بعض الأحايين، كان يدرك السبب "لم يكن في قدرة نابوليون أن يكون في إسبانيا وهو حال باسلنج ... إذا كنت لا تريد أن تتغلب عليك الحذاقة في العمل أو في المجتمع، فيجب أن تأبى التفكير في غيرهما من الأمور، ألحظ أني أخدع وأن فلاناً يريد أن يمكر بي ولكن حتى إذا لم يلفت ذلك نظري، فإني مكره على تركيز انتباهي في ناحية أخر، وفي الوقت الذي يتكشف لي ذلك، أكون

---

[١١٦] ربا، زاد

في غمرة عمل سيفسده علي أي تعويق، ويحدث في الكثير الغالب أني أكون عاكفاً على إصلاح سقف كوخ على ضوء منازلي التي تشتعل فيها النيران"، وأحياناً الآن تلح به الحاجة إلى الرحيل، وفكر في البرازيل ورغب في الإقلاع عن الكتابة وراودته فكرة الانتحار ولكن طبيعته السمحة كانت لتعقد لها الغلبة وعقب فشل إحدى رواياته المسرحية وجده صحبه بعج انتصاف الليل يرسل الشخير في مقصورته.

وقد بث فيه موت زوج إيفا حافزاً جديداً، إنه كان آخر حافز ولكنه كان ذا أثر طوال السنين، واتخذ الآن كل صراعه لأجل المال والمرتبة والمكانة لوناً محدداً، وصل إلى أن يكون هدفا، لقد أراد أن يستمتع ببعد الصيت في باريس واستعرض كونتيسة كزوجة له، والآن شرع في إرساء أعظم المشروعات حماسة: إنه سيضع صيته تحت قدميها، سيكون عضواً فب المجمع العلمي وكاتم سره بمرتب، وشريفا من أشراف فرنسا، إنه سيفتتح ندوة عالمية على شاكلة جيرار **Gerard**، وإيفادي بلزاك كواحدة من ملكات باريس، وكان في إجاباتها فتور، إنه طليق فلماذا لا يأتي، وعلاوة على هذا، فإن أسرتها تعارض في زواجها من كاتب، ولكي يحصل على ما يلزم من مال لرحلته إلى روسيا، كان لزاماً عليه أن يجلس أسابيع في مؤسسة للطباعة، صغيرة في الأقاليم، كل هذا لأجل آلاف قليلة من الفرنكات.

وتتجدد الآمال ويتصاعد صيته، إن دافيد دانجيه **David d'Angers** يصنع تمثالاً نصفياً هائلا يريد أن يضعه مع تمثال جوته

ولامارتين Lamartine ويحاول فكتور هيجو أن يحصل له Goethe على مقعد في المجمع العلمي (الأكاديمية) ولكن الخالدين[١١٧] يفضلون دوقاً صغيراً على العبقري الذي كان من المحتمل في أية لحظة أن يزج به في سجن الدائنين، وقام بزيارة أخرى لروسيا وصحبها تجدد التقرب وتجدد صنوف من خيبة الأمل، ويكتب عندما تشير إلى أصدقائه "إنك ترتكبين أعجب خطأ إذا ذهب بك الظن أن لرجل مثلي أصدقاء ... ولقد احترت في لهفة عما إذا كان أي شخص يفهمني حقا ... كيف يمكن لامرأة مثلك أن يغيب عن بالها مقدار العمل الذي أنهض به كل يوم وكم عدد الصفحات التي أكتبها، كيف وأتاك أن تقابليني أبدا بنفس الأمور المبتذلة! .. وفي تلك اللحظات العابرات من التبصر، كثيراً ما كانت تطرق فكرة "المحبوبة Dilecta" التي قضت، ويتحدث عنها، وهو يكيل لها الثناء السافر، إلى الكونتيسة وعلاوة على هذا، يوكد له صحبه أنها ما كانت تريد إلا أن تستعرض على الملأ صداقته في مباهاة وأنها لن تتزوج منه أبداً.

وكان، وهو الخبير العظيم للبشرية، يصغي ويفكر ملياً ويأبى أن يصدقهم، ولقد وقع في حبائل هذه القصة كواحد من أبطاله.

وربطته إلى هذه المرأة مواطن ضعفه وعارم عواطفه وما كان يساوره من خدع، وكان قد حزم أمره على أن يلازم مصيره مصيرها، ولم ير أنه كان يورد نفسه موارد الهلاك؟ ... وفي أسلوب قصصي إل أبعد حد، كانت حياته

[١١٧] لقب أعشاء الأكاديمية في فرنسا

العملية تسير إلى غايتها، وأصبح كل شيء رمزياً كأنه كان من صنع ثم بلزاك، وقد ظهرت على منزله المكسب من باريس الذي كان يستقر على منحدر طيني، علامات التقلقل واستدعى الأمر أن تقام له دعامات، وعلا الجفاف حديقته التي كان يعتزم أن تجري فيها التجربة على الأناناس.

ومع هذا فقد ظل على اعتقاد في ثراء عريض يغدق عليه في المستقبل ويكتب بالفحم على حيطان بيته الصغير، العارية، أفانين الزخرف التي استقر الرأي عليها، لتجميل جزء: تكسيه الواجهة برخام باري، لوحة من صنع ديلاكروا **Delacroix** مدفأة من الرخام، أرضية معشقة بالأخشاب الاستوائية.

ولقد حل الإعياء بعقله وقلبه جميعاً وبدأ يتداعى، ولقد عادت أعراض المرض عندما كان في الثالثة عشرة، إليه وهو في سنته السادسة والأربعين: التهاب الأم الجافية **dura mater**، فترات إغماء، صداع شديد، فساد دهني في القب وعسر التنفس **dyspnea** عند أقل جهد، وأخيرا لم يكن ليستطيع أن يخطو عشرة خطوات دون عناء، وازداد نحولاً، ولدق أحس كل هذا وأتى عليه بالوصف بما يقرب كثيراً من المذهب الذي كان يمكن أن يسير عليه في إحدى رواياته ويتحدث عن هذه الخمس عشرة سنة من العمل الحبري، ولكنه كان يعتمد على بنيان الزراع الذي كان له:-

"إن مزاجي الذي يشبه مزاج ثور يخوض المعركة ضد الموت إني عضو، في صف المعارضة التي يطلق عليها الحياة"، وبهذه العزمة التي

يسمو فيها تفاخره يلج طوره الأخير، وقد أعد خطبة رسمية مع إيفا هانسكا، عند زواج ابنتها وعند ذلك جعلته يستأني أربع سنوات أخرى، أما هو، وصيته الذي ذهب في آفاق العالم، وأمراضه الخطيرة وديونه، فقد بدأ، كشاب يافع برح به الحب، في وضع أسس نعيم حياته، ومرة أخرى وضعت زيارة طويلة للقلعة نصب عينيه، ما كانت عليه رتبتها من روعة، ولقد بهرته مجموعة الغرف التي شغلها، وآلاف عبيد الأرض ولو أنه كان عليماً بالشدائد المالية التي يعانيها المالكون للأراضي الواسعة هؤلاء، وكانت له مشروعات جامحة في تصورها، يأمل من ورائها أن يعالجها، وقد عقد النية وهو الوحيد الأرمل ولا يزال بوهيمياً ولا توال تقف العوائق دون بلوغ مطامحه الاجتماعية، على أن يقيم منزله على أساس هذه الصداقة، وكشف القناع، مرة أخرى عن جنون حياته بأكملها، عندما أكد أنه سيبلغ المرمى، بزواجه من هذه السيدة العظيمة **grande dame** التي يجري في عروقها دم النبلاء، كالذي بلغه عن طريق كتبه وأنه إذا لم يستطع الاستحواذ عليها كحتام أجل عمل في حياته فإنه يفضل أن يعيش كما بدأ، في عزلة بمائة من الفرنكات كل شهر.

وقذف بنفسه في استعداداته في حماس يقرب أن يكون عنيفاً وبينما كان يشعر بأن نشاطه يأخذ في النقصان، فإنه عقد صفقات هائلة مع المجلات الدورية ومع الناشرين وكان يفكر في مبالغ يصل حدها إلى مئات الآلاف ومع هذا لم يكن يمتلك بنساً واحداً يوم السوق.

وعلى الرغم من هذا فقد ابتاع مقاعد من طراز هنري الرابع لندوتهما، لقصرهما، لنعيمهما.

"إني أخصص نفسي لسعادتنا، في سنة ١٨٤٨ سنملك واحداً من أعلى بيوت باريس ثمناً، ولن أكون مديناً ببارة واحدة وسيكون لدي خمسمائة ألف من الفرنكات من السمسرة دون أن نحصى الدخل الذي سيأتي به "المسلاة الإنسانية" **ComedieHumaine** الذي سيصل، على الأقل إلى هذا القدر، وبهذا أيتها السيدة الحسناء ستكونين قد تزوجت من رجل تبلغ ثروته مليوناً وأكثر، إذا لم ألقى حتفي".

وهناك يجلس بلزاك في غرفته الصغيرة، لقد عمل على أن يخلي صاحب المنزل الغرفة التي تجاورها وهنا كدس أوانيه الصينية وبسطه وما لديه من دمى ومداليات وساعات الحائط والمصورات والشمعدانات التي كان الغرض منها أن تضيف إلى سعادته، ثم نيابة عن إيفا يبتاع قصراً صغيراً من ثم بنكمان **Bankmann** في اتئاد، يملأه بجميع ما لديه من كنوز– الغر التام والشاعر التام، وخطاباته إليها الأن تخلو من الهم كأنها خطابات صبي، ولكنها تجيب عليها في عصبية وتخشى أن تأتي النيران على كل شيء، أو أن يسرق، ثم يسكن أمه العجوز، عدوته، بيته الذي لا يشغله أحد، ويكتب هو بعينه في حجرة روايتين في خمسة شهور أحياناً، عندما يرتفع المقياس الحراري إلى درجة أربعة بعد المائة بينما فوقه، توقد غرفة كي الملابس تحت السقف، بالفحم.

واستمرت هذه الحال أعواماً، وعند ختام هذه الفترة من الترقب الدائم، صعد بلزاك– الذي كان دائماً يضع الخطط للمستقبل والذي لم يعش أبداً في الحاضر، لنه دأب على تصوير الحاضر القريب– إلى مشاهد فيها قوة وعنف، مشاهد فاجعة وبينما كان يبتاع صوراً من وضع واتو **Watteau** وبالمافكشيو **Palma Vecchio** لحيطان نعيمة الزوجي، كانت المرأة تعلم أن منيته وشيكة الوقوع، ومع هذا فقد كتب لها أنه لا يزال يوجد أمامهما خمس وعشرون سنة.

ويسمح للتنبؤات المنذرة كالتي تزخر بها رواياته أن تمر دون أن يأبه لها، إن ابن إيفا منه يولد ميتا، ويسقط خاتمها من إصبعه الناحل وتكسر الخزانة التي تحوي رسائلها ويسرق ما فيها من خطابات، وأخيرا ينتقل إلى القصر ويستعرض كنوزه أمام صحبه ولكنه يعرض أيضا في المكتبة جنبا إلى جنب مع القصص المضحكة **ContesDrolatiques** سفراً في غلاف أسود– الحسابات الحزينة **ComptesMelancoliques**[١١٨] ومطالبات بديون لم تسدد.

جوتيه **Gautier**: "ولكن يجب أن تكون مليونيرا".

بلزاك في تواضع: "إني أفقر مما كنت أبداً، لا أملك شيئا من هذا كله، لقد أثثته لأجل صديق أنتظره، ما أنا إلا حارس هذا المنزل وحسب.

[١١٨] في**Contes** و **Comptes**– جناس لفظي.

وأخيراً، قبل موته بأشهر قلائل عند آخر زيارة لها من صديقها، تدرك المرأة البولونية مقدار ما في عنقها من دين إلى الرجل الذي يوافيه أجله وتسرع بعقد الزواج، ويكتب بلزاك وقد واتاه النجاح بعد ثماني عشرة سنة من حدب ورعاية أنه: إن هذا القران هو، بكل تأكيد، تعويض إلهي عن كل هذا القدر من الشقاء، وهذا العدد من سنوات الكدح واحتمال الكثير من العراقيل والتغلب علبها، إن ربيع حياتي لم يكن سعيداً ولكني الآن سأستمتع بصيف يبلغ من الروعة الغاية وبأعظم فصل خريف اعتدالا ... أكاد أطفر من فرط السعادة، أليست أولئك، نغمات الصبا؟ والآن يأتي في أعقاب هذا رحلة زواج مفزعة، شعر عبر بولندا التي تخلو من الطرق والسائس يقاسي تباريح مرض خطير، وتكتب إيفا رسائل مريرة إلى ابنتها والمرة الوحدة التي يأخذ منها الحماس فيها، تحدث عندما يقدم إليها عقداً من اللؤلؤ هدية، وتتعاقب الأزمات النفسية والمشاهد، الواحد بعد الآخر لأنها مدللة وعصبية الطباع، وهو عزب معتل الصحة.

وقبل أن يضلا إلى باريس، ينبئ أمه بان تقوم على زخرفة كل شيء بالزهور وعليها أن ترحل بعد ذلك في الحال بما أن على إيفا أن تقوم بأول زيارة لها، ولو أنه كان يضمر الكراهية لأمه فإنه بتقديم هذا المطلب الرائع للكونتيسة، يسترد الرجل الشعبي الثقة بنفسه.

ويصلان في المساء وقد أضيئت النوافذ إضاءة ساطعة، إن لحظة السعادة قد دنت، ولكن لماذا لا يفتح أحد؟ هل أخذت الخادم سنة من

نوم؟ ويطرقان ويهزان الباب وأخيراً يتحتم عليها إحضار صانع قفول ويدخلان عنوة، وفي الداخل يجدان الخادم، لقد جن من الانفعال وكان على بلزام أن يأخذه إلى مستشفى للمجاذيب في نفس الليلة، إنه مشهد من أمثال تلك التي يمكن أن يكتبها بلزاك.

وتصل إليه خلال الأيام الأولى رسائل عديدة بعنوان "السيد الكونت دي بلزاك **Monsieur le Comtc de Balzac**" ولم يكن وطنه ولم يكن صيته هما اللذان رفعاه إلى هذه المرتبة المرموقة ولكن حماس دائنية بما أنه أصبح الآن زوجاً لكونتيسة، وكانت الغلف[١١٩] تحوي سندات دين، كما كان العهد بها منذ ثلاثين سنة– وإنما العنوان أصبح أكثر أناقة.

لقد بلغ الآن واحداً وخمسين عاماً، إنه يشكو ألما مبرحا في قدمين أصابتهما الغنغرينا[١٢٠]**Gangrene** ولم يبق له من العمر غير ثلاثة شهور لا تزيد وأخيراً يضعف بصره: ويزحف هنا وهناك في عمى جزئي، وقد كان فيما سلف من الزمان حديد البصر مثل لونقيس **Lynceus**[١٢١] وكان يبقى يقظان في عليته كحارس لباريس والآن يجلس في قصره الذي ويتكدس فيه المتاع وهو مكفوف وقد ذهب عنه النشاط، ويضيف في ختام خطاب أملاه، بخط يده، الملكي:

١١٩جمع غلاف مثل كتاب وكتب

١٢٠مركز تولد الخلايا (في النسيج اللمفي)

١٢١جاء في الأساطير أن بصره كان يخترق الأرض والأشياء.

"لا أستطيع القراءة أو الكتابة **je ne puisni lire niecrire**"

ولكن عندما يقدم فكتور هيجو سراً ليستأذن منه ينشرح صدر المريض ويعتقد في شفائه ويومئ إلى الكنيسة المجاورة، ولا قدرة له بعد الآن على اصطحاب الضيف إلى أسفل الدرج ولكنه يهتف إلى زوجته من أعلى: "أطلعي أولا هيجو على كل مصوراتي".

ووشيكا بعد ذلك في إحدى أمسيات شهر أغسطس من سنة ألف وثماني مائة وخمسين يعود أستاذ الفصاحة العظيم، الواقعي العظيم، وهو على فراش الموت، إنه لا يجد الزوجة هنا ولكن الأم فقط، لقد غشت وجه الرجل المحتضر غبرة وكأن الألم ينحت جسمه نحتا، وهكذا يرقد هناك وقد أضناه العيش، ضحية رغبته الجامحة في العمل، إنه يذهب بددا تحت يدي الموت وقبل انقضاء يوم آخر لن يستدعي الأمر إزاحة أقنعة أخرى.

وبعد ذلك بيومين، يلقى فكتور هيجو وقد انهار تقريبا أثناء الحداد، خطاب جنازه، روحانياً حقاً، تكريماً للكاتب الذي كان بينه وبين الفصاحة جفوة، وبعد ذلك بأسابيع قلائل تغوي إيفا معجباً لزوجها يصغرها سناً، في أول زيارة له، ويمتد بها الزمن ثلاثين سنة أخرى.

لقد كان شعبيا مثل رامبراندت **Rembrandt** ولهذا السبب كانا غير شاعريين، ولكن بلزاك لم ينزع إلى التأله[١٢٢].

---

[١٢٢] **Mystic** – سبق شرحه

لقد سار به مطمحه الدنيوي إلى الكارثة، ومع هذا فلولا هذه الرغبة الجامحة لكان ما أنتجه أقل كثيراً، دون أن يدخل تحسين في نوعه لأن خلاصة القول هي أن عبقريته توجد في المدى الذي وصلت إليه مؤلفاته ولا تكفي واحدة من رواياته في ذاتها لأن تكسبه صيتا عالميا وما لرواياته من اعتبار يرجع إلى الحقيقة الواقعة وهي أنه تبلغ في مجموعها المائة غداً، وفي هذه الناحية يمكن أن يوازن بشكسبير.

وبما أن نهجه في العيش الذي لوناً ذا زخرفة لا ذوق فيها كان يتأرجح بين التقشف والبذخ فقد خلق أنواعاً تناصب العداء وتلك التي تنطوي على ذاتها.

لقد ألم إلماماً بجميع الشخوص وجميع الأمزجة في الجنسين، إن مجموعته من رتب النبات كاملة، لا ينقص منها ضرب[١٢٣].

وكان يوجد في الواقع شيء واحد فقط لم يصوره أبداً شخص في استرواح تام، "ودراسته الوحدة الناجحة في الاسترواح هي محبوبته Dilecta– زنابق في الوادي Lys dans la vallee" لأنه كما نفخ الله في الإنسان روح الحياة، فإن بلزاك بعث في شخوصه سرعة إيقاعه هو، وبينما لا يقع عليهم جميعاً الإرهاق الدائم كبلزاك نفسه، فإنهم في كل الحالات، في حركة، ومولدهم يعاصر بداية الآلة البخارية التي فرضت خطوتها على القرن، وكلهم عن بكرة أبيهم ضحايا المال، ليس لأن

[١٢٣] استعارة – شبه أنواع الناس برتب النبات.

خالقهم كان كذلك ولكن بالحري لنفس السبب كخالقهم: لأن العهد، كما كان أول من أحسه، وأول من كتب عنه، فرض قسراً هذه اللعنة على البشرية وجعل الراحة مستحيلة.

ويتميز عن غيره من كتاب القرن الذي عاش فيه، أصلا، بأنه جمع بين الخيال والنشاط، وهاتان كانتا الخصلتين اللتين مكناه من أن يخلق ويدبر أمر هذه المثرة من الشخوص وأن يتصرففيهم في مثل تلك المهارة، وفي هذا الجمع يورد بلزاك إلى ذاكرتنا نابوليون.

ولقد ضحى بحياته في سبيل عبقريته، وعندما رأى الله، جل شأنه إنساناً جسر على خلق ألفين من الرجال وأن يشرف على مصائرهم، فإنه أنزل عليه عمى وكوارث كأولئك التي فرضها الشاعر على مخلوقاته هو.

لقد جعل بلزاك يدفع الغرم عن قدرته كخالق.

الفهرس